الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

شعراء الخلفاء العباسيين

عرفنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن حزب الخوارج الذى كان يصارع الأمويين مصارعة عنيفة خَمَدَ أُوَارُه ، ولم تَبْقَ منه حينئذ إلا أسراب قليلة حتى إذا كنا فى هذا العصر العباسى الثانى كادت تجفُّ هذه الأسراب ، ولم يَعُدْ من يُعْلن أنه خارجى أو يدافع عن الخوارج إلا أفراد قد نجدهم هنا أو هناك دون أن يكوّنوا حزباً أو يعملوا على نشر دعوة ، إنما هى أفكار قد تَعِنّ لشخص ، وقد يتبنّاها ، ولكن دون أن يَحْمل من أجلها السلاح ودون أن يتغنّى بها شعراً ، إلا ما كان من صاحب الزنج فإنه مزج فى دعوته بين التشيع ومذهب الأزارقة من الخوارج على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، إذ كان يستحلّ قتل أطفال المسلمين ونساءهم ويرى المسلمين جميعاً كفاراً ينبغى استئصالهم ، بالضبط على نحو ما كان يذهب الأزارقة . ولكن حتى هذه الحركة الثائرة حركة الزنج لا نستطيع أن نسميها حركة من حركات الخوارج ، لأنها كانت تزعم أو يزعم صاحبها أنها حركة شيعية ناسباً نفسه إلى فاطمة الزهراء كذباً وافتراء . وكأنما كان اضمحلال مذاهب الخوارج هو الذى جعله ينسب دعوته إلى البيت العلوى .

أما حزب الشيعة فقد ظلت نيرانه لا تخمد فى هذا العصر ، بل لعلها ازدادت اشتعالا ، بكثرة من كانوا يثورون من العلويين فى الحجاز وفى طبرستان وشرقى الدولة ، وكان وراء هذه الثورات شعر كثير يؤازرها ويناصرها ويرمى بقذائفه وشعله على العباسيين . وكان كثير من الشعراء يقف مع العباسيين ، بل لقد كانت كثرتهم

الغامرة تقف معهم ؛ لأنهم أصحاب الدولة وفى أيديهم خزائنها وأموالها يكيلون لهم منها كيلا ، فكان طبيعيا أن يكثر مُدّاحهم ودُعاتهم . بل إن كثيرين من شعراء الشيعة أنفسهم كانوا يُظْهرون غير ما يُبْطنون ، فيمدحون هذا الخليفة العباسى أو ذاك لقاء ما يُنْثَرُ عليهم من دراهم ودنانير . وكان منهم الخليفة المعتدل الذى لا يَحْمل على البيت العلوى ولا يضْطغن مثل المنتصر ، وكان منهم المتحامل المبغض مثل أبيه المتوكل أول خلفاء هذا العصر ، وقد مرّ بنا أمره بحَرْث قبر الحسين ومَحْو أرضه ومَنْع الناس من زيارة مكانه وكذلك زيارة قبر أبيه فى النجف ، وغدا آل أبى طالب فى محنة عظيمة طوال عهده يخافون على أنفسهم من القتل أو من الحبس . وتقرّب إليه غير شاعر من مثل على بن الجهم بِشَتْم على رضى الله عنه كما أسلفنا ، إما نَصًّا وإما تعريضًا كقول الجمّاز أحد ندمائه[1] :

ليس لى ذنبٌ إلى الشـ ـيعة إلا خَلّتين
حبّ عثمانَ بن عَفّـا ـن وحبّ العُمَرَيْن

يريد بالعمرين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ملوّحًا بأنه من أهل السنّة ، وأنه على مذهب المتوكل فى التَّسَنُّن ومَقْت الشيعة . وفتح المتوكل أبوابه للشعراء كى يمدحوه ويمدحوا بيته ويبرهنوا على أنه هو البيت الوارث حقًّا للخلافة ، مُلوّحين فى وجوه العلويين ومن يقفون معهم من الشيعة . وعرف الشعراء فيه هذا الجانب ، فاستغلوه يتقدمهم ابن الجهم ومروان بن أبى الجنوب وغيرهما كثيرون ، وأتوه من كل فَجّ من الشام والموصل والكوفة والبصرة والجزيرة العربية . وكان ممن أقبل عليه من الكوفة أبو الشِّبْل البُرْجُمِىّ ، حتى إذا دخل عليه أنشده قصيدة مؤلفة من ثلاثين بيتًا استهلّها بقوله[2] :

أَقْبِلِ فالخَيْرُ مقبلْ واتركى قولَ المعلِّلْ
وثِقى بالنُّجْح إذْ أَبـ ـصرتِ وجهَ المتوكل

وما إن انتهى منها حتى أمر له بألف درهم لكل بيت ، فانصرف بثلاثين ألف

---

(١) معجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٣٧٥ .

(٢) الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٤ / ١٩٣ .

درهم . وكان يَغْدو ويَرُوح وفى ركابه البحترى يمدحه فى كل مناسبة مشيداً بآبائه ووراثته لنور النبوة وإمامته ومهده وعدله ، ويتحول إلى ما يشبه داعية له فى كل عمل من أعماله . ومن طريف ما نقرأ من مدائح للمتوكل عند غيره مدحة لإبراهيم بن المدبر وكان لا يزال شابًّا يعمل فى دواوينه ، فمرض المتوكل ثم عوفى ، ودخل الناس على طبقاتهم يهنئونه بالإبلال من مرضه ، ودخل إبراهيم ، ولم يكد يقف بين يديه حتى أنشده قصيدة يهنئه فيها بسلامته مهللا مبتهجًا مع المبتهجين المهللين ، وفيها يقول[1] :

اليوم عادَ الدِّينُ غ ضَّ العودِ ذا وَرَقٍ نَضِـيرِ
يا رحمـةً للعالمي نَ ويا ضياءَ المستنيرِ
يا حجـة الله التى ظهرتْ له بِهُدًى ونورِ

والمبالغة واضحة وكأننا بإزاء غال من غلاة الشيعة يمدح إمامه ، وقد لعبت فيما بعد كلمة « حجة الله » دوراً كبيراً فى المذهب الإسماعيلى الفاطمى . وكان طبيعيًّا أن يَطْرَب المتوكل حين سمع القصيدة ، فيأمر له بخمسين ألف درهم ويتقدم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى أن يوليه عملا جليلا ينتفع به . وكان كثيرون يسيل لُعابهم لمثل هذا العطاء الجزيل ، حتى كبار الكتّاب من أمثال إبراهيم بن العباس الصولى ، وكانوا ما يزالون ينتهزون الفرص من الأعياد والمناسبات ، وكان من أكبر هذه المناسبات عقد المتوكل البيعة لولاة العهود أبنائه الثلاثة : المنتصر فالمعتز فالمؤيد ، وصنع لذلك موكبًا ضخمًا ، سار فيه مع أولاده حتى نزل القصر الذى سَمَّاه العروس وأذن للناس فدخلوا إليه ، فلما تكاملوا بين يديه وقف الصولى بين الصَّفَّيْن ، واستأذن فى الإنشاد فأذن له فقال[2] :

أَضْحَتْ عُرَى الإسلام وَهْىَ منوطةٌ بالنَّصْر والإعزاز والتـأْيِيدِ
بخليفـةٍ من هاشمٍ وثـلاثة كَنَفُـوا الخلافة من وُلاة عهودِ

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٩ / ١١٤ .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠ / ٦٤ وانظر الطبرى ٩ / ١٨١ والديوان (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) مع مجاميع شعرية أخرى ص ١٣١ .

قمرٌ توافَتْ حوله أقمـارُهُ فَحَفَفْنَ مَطْـلَعَ سَعْدِهِ بسعود
كَنَفَتْهُم الآباء واكتنفت بهم فَسَعَوْا بأَكْرَمِ أَنْفُسٍ وجدود

فأمر له المتوكل بمائة ألف درهم وأمر له ولاة العهود بمثلها . ويتولى بعده المنتصر، فيرفع المحنة عن آل أبى طالب ويدفع عنهم الأذى ويردُّ عليهم الأمن ، ويتغنى شعراؤه بهذا الصنيع ، يتغنّى البحترى ويتغنى غيره ، ويتغنى شعراء الشيعة من أمثال يزيد[1] بن محمد المهلبى . وسرعان ما يخلفه المستعين ، وفيه يقول أحمد بن يحيى البلاذرى [2] :

ولو أنَّ بُردَ المصطفى إذ لِبَسْتَهُ يظنُّ لظنَّ البُرْدُ أنك صاحبُهْ
وقال وقد أعْطيته ولِبستَهُ بنعم هذه أعطافه ومناكِبُهْ

ويتولّى الخلافة بعده المعتز ، وكان شاعراً مجيداً ، ولو امتدت به الخلافة لكان مثل ابنه عبد الله فى خصب ملكاته الشعرية ، وقصده كثير من الشعراء ، ليأخذوا جوائزه أو ليصبحوا من ندمائه إذ كان صاحب لهو وقصف ، فلم يكد يتسلم مقاليد الخلافة حتى فتح أبوابه لهم ، وكان ممن دخل عليه وأنشده مهنئًا أبو على البصير قائلا [3] :

آبَ أمرُ الإسلام خير مآبِهْ وغدا الملك ثابتاً فى نِصابِهْ
مستقرًّا قـراره مطمئنًّا آهلا بعد نَأْيِهِ واغترابِهْ

وتطول مدة المعتمد نحو عشرين عامًا أو تزيد سنوات ، وكان فيه لهو وانغماس فى الترف ، ولكن يده كانت مكفوفة عن المال ، كفَّها أخوه وولىّ عهده الموفق أشد بنى العباس شكيمة لعصره وأحزمهم بكل معانى الحزم وأروعه . وكأنما اختاره القدر فى عصر أخيه لينازل الزنج وصاحبهم فى ثورتهم العارمة ويقضى عليها قضاء مبرمًا . فكان طبيعيًّا أن ينصرف الشعراء عن الخليفة إلى ولى عهده وأمجاده الحربية فى وقائعه مع الزنج من جهة ومع يعقوب الصفّار من جهة ثانية . وقد صورنا هذه

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٥٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٨ .
(٣) مروج ٤ / ٨٢ .

الوقائع فى غير هذا الموضع ، وفى وقائعه مع الصفار يقول ابن فَيْد الطائى مصوّراً انتصاره[١] :

ووليُّ عهد المسلمين موفَّقٌ بالله أمضى من شهابٍ ثاقبِ
يافارسَ العُرْب الذى ما مثله فى الناس يُعْرَفُ آخَرٌ لنوائبِ

وتولّى الخلافة المعتضد ، وكان مثل أبيه شجاعة وفروسية وحزمًا ، ومرّ بنا أنه كان من مدّاحه ابن الرومى فهو يهنئه فى الأعياد المختلفة وينتهز كل مناسبة لينظم فيه أشعاره مهللا ممجداً . ونظم فيه ابن المعتز كثيراً من مدائحه ، كما أسلفنا ، وكان قُرَّة عينه ، وله صنع أرجوزته التاريخية التى صوّر فيها عهده تصويراً بارعًا ، وفيها أصْلَى خصوم العباسيين ناراً حامية ، مصوراً بشاعة ثورتى الزنج والقرامطة ، وكأنما جرَّد من نفسه محاميًا أمام أبناء عمومته العلويين مدافعًا عن بيته وحقوقه فى الخلافة ، ومرّ بنا ذلك فى حديثنا عنه . ويتولّى المكتفى بعد أبيه المعتضد ويُسْبِغ عليه ابن المعتز مدائحه ، كما يُسْبِغُها أبو بكر الصولى وغيره . ثم تكون خلافة المقتدر وتأخذ الدولة فى الانتكاس . ويظل الشعراء يقدمون مدائحهم للخلفاء طلبًا للنوال من أمثال ابن بَسَّام[٢] وغير ابن بسام . ونحن نقف عند ثلاثة من شعراء العصر طالما مدحوا خلفاءه ، وهم مروان بن أبى الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولى .

مروان بن أبى الجنوب أبو السمط[٣]

حفيد مروان بن أبى حفصة شاعر الخليفة المهدى ، أصل موطنهم اليمامة ، وقد سلك مسلك جدّه فى الطعن على آل على بن أبى طالب ، فكان طبيعيًا أن يفتح له جعفر المتوكل أبواب قصره وقد بلغ من حنَقه على أبناء عمه العلويين

---

(١) طبرى ٩ / ٥٢٠ .

(٢) انظر أخبار الراضى والمتقى فى كتاب الأوراق للصولى .

(٣) راجع فى أخبار مروان وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ ومروج الذهب ٤ / ٥٢ ، ٨٣ والطبرى ٩ / ٢٣٠ والأغانى (طبعة الساسى) ٩/ ٣٤ وتاريخ بغداد ١٣ / ١٥٣ والفهرست لابن النديم ٢٣٥ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٢١ والموشح ص ٣٤٤ ووفيات الأعيان وخزانة الأدب للبغدادى ١ / ٤٤٧

صوّرناه فى غير هذا الموضع . ويبدو أن الواثق لم يكن يُعْجَبُ به ولا بشعره فنفاه إلى اليمامة ، فلما ولى الخلافة بعده المتوكل بعث إلى ابن أبى دُؤَاد مستشاره بقصيدة مدحه بها ، ذم فيها ابن الزيات وزير الواثق ذمًّا قبيحًا ، وكان المتوكل قد قبض على أمواله وعذَّبه فى تَنُّور من خشب ملأه بمسامير من حديد حتى مات فقال فيه مروان :

وقيل لىَ الزَّيَّاتُ لاقى حِمَامَهُ ... فقلتُ أَتانى الله بالفتح والنَّصْرِ
لقد حفر الزيات بالغدر حُفْرَةً ... فأُلْقِىَ فيها بالخيانة والغَدْرِ

وكان ابنُ الزيات أولَ من عمل هذا التنُّور ، وعذَّب به نفراً . وما إن صارت القصيدة إلى ابن أبى دؤاد حتى طار إلى المتوكل وأنشده البيتين السالفين ، فأمره بإحضاره . فقال له إنه باليمامة ، كان الواثق نفاه لمودَّته لأمير المؤمنين ، وعليه دَيْنٌ : ستة آلاف دينار ، فقال المتوكل : يُعْطاها . فأعطيت له ، وجىء به إلى سامرَّاء ، فدخل على المتوكل وأنشده قصيدة لامية يقول فيها :

كانتْ خلافة جعفرٍ كنبوَّةٍ ... جاءت بلا طلبٍ ولا بتنحُّلِ
وهبَ الإلهُ له الخلافةَ مِثْلَمَا ... وهبَ النبوة للنبىِّ المرسلِ

فأمر له بخمسين ألف درهم . وأخذت هباتُ المتوكل الغدقة تنثر عليه نَشْراً ، فهو يغدو ويروح عليه بالمدائح . والمتوكل يُسْبِغ عليه عطاياه ، وكان مما أخذ فيه نوالا كبيراً قصيدته الدالية التى أنشدها المتوكل حين عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : محمد المنتصر وعبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد ، وفيها يقول :

ثلاثة أمــلاكٍ فأما محمَّدٌ ... فنورُ هُدًى يهدى به اللهُ مَنْ يَهْدِى
وأمــا أبو عبد الإله فإنه ... شبيهك فى التقوى ويُجْدِى كما تُجْدِى
وذو الفضل إبراهيمُ الناس عصمةٌ ... تَقِىٌّ وَفِىٌّ بالوعيد وبالوَعْدِ
فأولهم نــورٌ وثانيهمُ هُدًى ... وثالثهم رُشْدٌ وكلهم مَهْدِى

فلما أتمَّ إنشادها أمر له المتوكل بمائة وعشرين ألف درهم وخمسين ثوبًا وبغلة وفرس وحمار . فما برح حتى قال فى شكره :

تخيَّر رَبُّ الناسِ للناس جعفرًا فملَّكه أمرَ العباد تَخَيُّرا

حينئذ رَدَّ عليه ضياعه التى كان ابن الزيات قد صادرها ، وجعل له راتبًا فى الديوان ، ولعل أهم من كل هذا المديح أنه دافع بحرارة فى جوانب من مديحه عن حقوق العباسيين فى الخلافة مؤتسيًا فى ذلك بجدّه مروان بن أبى حفصة ، وائتسَى به أيضًا فى الرد على العلويين ونَقْض ما يدَّعونه من وراثة الرسول فى الخلافة . إذ هم أبناءُ السيدة فاطمة الزهراء والعمُّ مقدم على أولاد البنت فى الوراثة حسب حكم الشريعة . ومن خير ما يصور ذلك عنده قصيدته اليمية التى تمضى على هذا النمط :

مُلْكُ الخليفــة جعْفَرٍ للدين والدنيا سلامَهْ
لكم تراثُ محمَّدٍ وبِعَدْلكم تُنْفَى الظُّلامَهْ
يرجو التراث بنو البنا تِ وما لهم فيها قُلامَه
والصِّهْرُ ليس بِوارثٍ والبنتُ لا تَرِثُ الإمامَهْ
أخذ الوراثةَ أَهْلُها فعلامَ لَوْمُكُمُ علامه

وهو يشير بوضوح فى الأبيات إلى أن مصاهرة على بن أبى طالب للرسول عليه السلام لا توجب له وراثة ، كما يشير إلى أن السيدة فاطمة بنتٌ ، والبنت لا ترث الولاية على المسلمين ولا تحق لها الإمامة ، فكيف تُورَثُ الإمامة من قبلها ؟ والشريعة واضحة فى ذلك . وطار المتوكل حين سمع القصيدة ابتهاجًا ، وقلَّده اليمامة والبحرين وخلع عليه أربع خلع ، وخلع عليه ولى عهده المنتصر . وأمر المتوكل له بثلاثة آلاف دينار فنُثرت على رأسه ، وأمر ابنه المنتصر وسعداً الإيتاخىّ بالتقاطها له دون أن يلتقط هو منها شيئًا إكرامًا له ، ويقال إنه حشا فمه جوهراً . ومن طريف ماله فيه قوله :

تخشى الإله فما تنام عنايةً بالمسلمين وكلهم بك نائمُ
لو كان ليس لهاشم فيما مضى سلفٌ سموك لقلّدتْك بنو هاشم

وقال بعض معاصريه إن المتوكل أعطاه مائتى ألف دينار من وقت [illegible]

وذهب وكُسْوة . وكانت هذه العطايا الغامرة تملأ نفوس بعض الشعراء من حوله وحول المتوكل حسداً أن تعلو جائزته جوائزهم ، فكانوا يتبادلون معه بعض الأهاجى حتى شاعرٌ نابهٌ مثل على بن الجهم نراه يتهاجى معه ، ولم يكن مروان يَصْمت بل كان يبادر أحيانًا إلى الهجاء ، ويُرْوَى أن ابن الجهم قال فى فاتحة قصيدة له فى المتوكل :

اللهُ أكبرُ والنبىُّ محمَّدٌ والحق أَبْلَجُ والخليفة جعفرُ

ولم يكد يسمع مروان قوله ، حتى أعمل فكره ، وبادره يقول له ساخراً منه سخرية شديدة بل سخرية مرة شديدة المرارة :

أراد ابنُ جَهْمٍ أن يقول قصيدةً بمدح أمير المومنين فأَذَّنا
فقلتُ له لا تعجلنْ بإقامةٍ فلستُ على طُهْرٍ فقال : ولا أنا

وكان يقدّم لمدائحه بنسيب رقيق يحيِّى فيه نجداً ويدعو لها ولأهلها بالسقيا ويتمنى زورةً لهم أو إلمامة قصيرة . وله أبيات جيدة يتحدث فيها عن الشيب ، والشباب وعهده وعهوده ، وحبه الماضى ، وفيها يقول :

شمسُ الشباب علىَّ اليومَ طالعةٌ وسوف تغرب إن الدهر ذو غِيَرِ
إذا الشبابُ مضَتْ عنا بشاشته فما نُبالى متى صِرْنا إلى الحُفَر
لنا من الشوق أكبادٌ مصدَّعـــةٌ وأَعْيُنٌ كُحِلَتْ بالدَّمْعِ والسَّهَر
سَقْياً ورَعْيًا لأظعانٍ مُوَلِّيَةٍ فيها خَرائدُ كالغزلان والبقر
ودَّعتهنَ وداعاً زادنى كَمَدًا ما كان إلا كوِرْدِ الطائر الحذِرِ

وله شعر فى المعتز رواه المسعودى فى المروج مما يدل على أنه عاش حتى عصره . ولعل فيما قدمنامن أشعاره ما يدل على خصب شاعريته وأنه كان مثل جدّه يعنى بصقل أشعاره وانتخاب ألفاظه حتى تروق سامعيه بما فيها من جزالة وطلاوة .

على [١] بن يحيى المنجم

من أصل فارسى أسلم أبوه يحيى على يد المأمون وخُصَّ به ، ويقال إن جَدَّ يحيى أبرسام البُزُرْج كان وزيراً لأردشير وصاحب أمره . وشملته عناية المأمون هو وابنه على ، وتوالى عليهما بِرُّه ، وأخذ نجم الأسرة فى التألق ببلاط المأمون والمعتصم ، وتوثقت الصلة بين على ومحمد بن إسحق بن إبراهيم المصعبى ، ثم بينه وبين الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، ووصَفه له وقدَّمه إليه ، وأعْجب به المتوكل وقرَّبه منه ، حتى صار أكبر ندمائه ، يساعده فى ذلك علمه الواسع بالرواية والأخبار . وكان أشبه بالموسوعيين فهو يأخذ من كل علم وكل أدب بطرف ، مع إحسانه اختيار الطرائف والنوادر ، حتى كان المتوكل لا يصبر على بعده . ويقال إنه بلغ مجموع ما وصله به ثلاثمائة ألف دينار ، وخلفه المنتصر فغلب عليه أيضًا ، وقدَّمه على جميع جلسائه ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وأقرَّه المستعين على ما تقلده من تلك الأعمال . ثم خلص الأمر للمعتز ، فكان أول من طلبه لمنادمته على بن يحيى ، وحين قدم عليه تلقاه أجمل لقاء وخلع عليه ووصله ، وقلَّده الأسواق والعمارات ، وقدَّمه على جميع الندماء ووصله بثلاثة وثلاثين ألف دينار وقلَّده قصره الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ثم أفضى الأمر إلى المعتمد ، فَحَظِىَ فى عهده حُظْوة كبيرة . ووصله صلات سَنِيَّة ، وقلَّده أعمال الحضرة ، وما زال يحظى برعايته ورعاية أخيه الموفق حتى نهاية حياته .

وابن المنجم نموذج رفيع لندماء الخلفاء ، فقد كان هناك ندماء كثيرون مضحكون كل همهم إضحاك الخلفاء وإدخال السرور على نفوسهم بما يوردون على أسماعهم من الأجوبة الهازلة أو ما يدخلون على ملابسهم وحركاتهم من الصور المضحكة . وكان ابن المنجم مع ظَرْفه وما يورد على الخلفاء من النوادر والأخبار والقصص المستحبَّة ، بل قل مع اكتمال خصال المنادمة فيه ومعرفته بضروب الثقافات ، حتى

---

(١) انظر فى حياة على بن يحيى وأشعاره معجم الأدباء ١٥ / ١٤٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٤١ والفهرست ص ٢١١ والأغانى (طبعة الساسى) ٩/٢٢ وتاريخ بغداد ١٢/١٢١ ومروج الذهب ٤/١٩١ والنجوم الزاهرة ٣/٧٣ .

قيل إنه طبيب ومنجم وأديب وشاعر ومغن وجليس ومضحك ، مع هذا كله كان فيه غير قليل من الوقار . وكان يُعَدّ من رعاة الأدب فى عصره حتى كان بيته مألفاً للأدباء ، وكان يصل كثيراً منهم بالخلفاء والأمراء ، ويستخرج لهم منهم الصلات ، وكان يبلغ من عنايته بهم أن يهدى إلى الخلفاء والوزراء عنهم الهدايا الطريفة ، حتى ينفحوهم بالنوال السابغ ، وكان كثيراً ما يهب من ماله لمن يحرمون الصلات من الأدباء . وليس ذلك كل ما يرفع منه ، فقد ألهمه تفكيره الصائب أن يستغلّ الأموال الكثيرة التى كانت تُنْشَرُ عليه من المتوكل وغيره من الخلفاء فى إقامة مكتبة ضخمة ، مرّ بنا حديث عنها فى غير هذا الموضع ، وكان طلاّب العلم يقصدونها من كل مكان والكتب مبذولة لهم ، وكذلك النفقة مهما طالت إقامتهم . وبذلك كان من رعاة طلاب العلم والأدب فى عصره ، بل لعله كان أكبر رُعاتهما ، ولا شك فى أن ما عُرف عنه من خبرة تامة بالكتب وثقافة واسعة بها هو الذى جعل الفتح بن خاقان يطلب إليه صُنْعَ مكتبة له يباهى بها معاصريه . ومن تتمة ثقافته أن يُذْكَرَ له من التصانيف كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين ، وكتاب أخبار إسحق الموصلى وكتاب الطبيخ ، والكتابان الأخيران يتصلان بمنادمته لاتصالهما بأخبار المغنين وبتذوّق الأطعمة .

وكان شاعراً ، وله شعر كثير كما يقول ياقوت فى ترجمته ، غير أنه لم يكن يُعْجَبُ بشعره ، ولذلك لم يكثر من الاستشهاد به إلا ما جاء فى سياق أخباره ، ولو أنه صنع لاطلعنا بوضوح على أشعاره فى الخلفاء والوزراء . ولعل أول شعر قاله ما نظمه فى رثاء المأمون ومديح المعتصم ، مما رواه ياقوت فى ترجمته ، وبدون ريب كانت له أشعار كثيرة فى المتوكل ومن تلاه من الخلفاء ، ونستطيع أن نتخذ صورة لهذه الأشعار قوله فى المعتز حين استولى على مقاليد الخلافة :

بَدَا لابساً بُرْدَ النبىِّ محمدٍ ... بأَحسنَ مما أقبل البدرُ طالعا
سَمِىُّ النبىِّ وابن وارثه الذى ... به استشفعوا أكرمْ بذلك شافعا
وكل عزيزٍ خشيةٌ منه خاشعٌ ... وأنت تراه خشية الله خاشعا

وهو شعر متوسط . شعر يعتمد على المناسبة الحاضرة ، ولذلك كان يستساغ فى

وقتها كما تستساغ كلمات الندماء ونوادرهم وفكاهاتهم . وهكذا دائمًا شعرهم ، فهو إنما يُعْجب فى لحظة قوله ، ولذلك كان يُرْوَى مع أخبارهم . ومن هذا الطراز نفسه قصيدته فى الفتح بن خاقان التى أنشد ياقوت منها بعض أبياتها ، وله وراء ذلك أشعار يصوّر بها سمو نفسه ، لعل من أطرفها قوله :

سيعلم دهـرى إذ تنكَّر أننى ... صبورٌ على نكرانه غير جازعِ
وأنى أسوس النفس فى حال عُسْرها ... سياسةَ راضٍ بالمعيشة قانع
كما كنت فى حال اليسار أسوسها ... سياسة عَفٍّ فى الغنى متواضع
وأمنعها الوِرْدَ الذى لا يليق بى ... وإن كنت ظمآناً بعيد الشَّرائع

فهو يصور نفسه صابرة لا تجزع مهما ادلهمَّت الخطوب ، كما يصور نفسه لا تهون فى حال عسر او شدة ، بل تتقبَّلها راضية قانعة كما تقبَّلت اليسر قَبْلاً مزدرية مغرياته فى تواضع غير مسفّ دون أى إحساس باستعلاء ، وإنه ليمنع نفسه الإلمام بأى وِرْد دنىّ مهما كان ظمآنَ ، كاظمًا لظمئه ، محتملا لحرارة عطشه . وله فى الطيف :

بأَبى واللهِ مَنْ طَرَقا ... كابتسام الصبح إذ خفقا
زادنى شوقاً برؤ يتـــه ... وحَشَا قلبى به حُرَقا
زارنى طَيْفُ الحبيب فما ... زاد أن أغرى بىَ الأَرقا

وكأنما أراد أن يحاكى البحترى فى كثرة أشعاره التى نظمها فى الطيف . ولا شك أنه من طراز متوسط ، فأجنحته ليست من القوة بحيث تستطيع أن تحلق به فى الأفق الذى يحلق فيه البحترى . ومرَّت بنا آنفًا رعايته للأدباء والشعراء ، مما جعل غير شاعر ينظم فيه بعض مدائحه ، مصوراً كرمه الفياض من مثل قول أبى هفان :

لربيع الزمان فى الحَوْل وقتٌ ... وابنُ يحيى فى كل وقت ربيعُ
رجلٌ عنده المكارم سوقٌ ... يشترى دهره ونحن نبيعُ

ولذلك حين وافاه القدر سنة ٢٧٥ عن أربعة وسبعين عاماً بكاه كثير من الشعراء ، وفى مقدمتهم ابن بسّام ، وقد أنشدنا فى غير هذا الموضع مرثيته له ، وهى مرثية جيدة .

أبو بكر الصولى[1]

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولى من بيت كتابة وشعر ، تقلد أصحابه كثيراً من الأعمال السلطانية ، مثل عمه إبراهيم بن العباس ، وكان أكبر كاتب فى دواوين المتوكل . وهما من أسرة صول تكين أحد أمراء جرجان . كان قد ظفر به يزيد بن المهلب فى بعض حروبه وهو وال على خراسان للحجاج ، فأسلم على يديه ، ولزمه وأصبح من رفاقه ، حتى إذا ثار يزيد على بنى أمية فى أوائل القرن الثانى للهجرة ثار معه عليهم محارباً فى صفوفه ، ودارت عليهما معاً الدوائر فسقطا قتيلين فى ميادين المعارك . وقد تتلمذ أبو بكر لعلماء عصره فى بغداد : أبى داود السجستانى وثعلب والمبرد ، وكذلك لأصحاب الأخبار والمؤرخين ولأصحاب الهندسة ، وتدل صلته بالأخيرين على معرفته بعلوم الأوائل . وكان يُحْسن لُعْبة الشَّطرنج حتى قالوا إنه كان أكبر حاذق لها فى زمنه . وأكبَّ على معارف عصره إكباباً منقطع النظير ، وجعله هذا الإكباب يُعْنَى بجمع الكتب ، وما زال يجمعها حتى كوَّن لنفسه مكتبة ضخمة تحدث عنها معاصروه ، كما أسلفنا ، وراعتهم فيها جلود الكتب المختلفة الألوان ، إذ جعل لكل صفّ من الكتب لوناً ، فصف أحمر وصف أخضر إلى غير ذلك . وفتحت له معارفه الواسعة ومهارته فى لعبة الشطرنج أبواب الخلفاء منذ عهد المعتضد ، وهو مع ذلك يغدو عليهم ويروح بمدائحه ، وهم ينثرون عليه أموالهم ، مما جعله يعيش معيشة رَغْدة . وكلَّفه المقتدر تعليم ولديه الراضى وهرون ، فأحسن تعليمهما ، وخرَّج أولهما شاعراً وأديباً لَسِنًا ، حتى إذا ولى الخلافة اتّخذه نديمه ومستشاره . ويزورُ عنه الخليفة المتقى بعده فيترك بغداد إلى

---

(١) انظر فى أخبار أبى بكر الصولى وأشعاره الفهرست ص ٢٢١ وتاريخ بغداد ٣ / ٤٢٧ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٣١ وديوان المعانى للعسكرى (انظر الفهرس) وذيل زهر الآداب ص ٢٤٥ ومعجم الأدباء ١٩ / ١٠٩ ووفيات الأعيان والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٩٦ وله فى كتابه أخبار الراضى والمتقى أشعار كثيرة .

بجكم التركى حاكم واسط سنة ٣٢٩ ويتوفَّى المتقى سنة ٣٣٣ فيعود إلى بغداد وسرعان ما تحل به ضائقة ، فيتركها إلى البصرة سنة ٣٣٥ حيث لبَّى نداء ربه ويقال بل إن الخليفة المستكفى عرف تشيعه لآل على بن أبى طالب فطلبه ، وفرَّ منه إلى البصرة .

وقد صنع الصولى دواوين كثيرة لطائفة كبيرة من الشعراء المحدثين فى مقدمتهم أبو نواس وأبو تمام وابن الرومى وابن المعتز . وصنَّف كتبًا جليلة فى أخبار الخلفاء وسيرهم وأخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتَّاب والرؤساء . ومن كتبه النفيسة كتابه « الأوراق » وقد نُشر منه ثلاثة أجزاء : جزء خاص بأخبار الشعراء المحدثين وجزء خاص بأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم وجزء خاص بالخليفتين : الراضى والمتقى . ونُشر له مصنفه أدب الكتَّاب وكتاب أخبار أبى تمام وهو فيه ينتصر له ضد خصومه ، ولعل فى ذلك ما يصور بصره بالشعر العباسى ، وأنه كان يقف فى دقة على أساليبه ومذاهبه ؛ إذ نبَّه على أن أبا تمام صاحب مذهب جديد فى الشعر ولامَ من يعيبونه ببعض أبيات فاته التوفيق فيها متناسين تحليقه فى آفاق الشعر العليا التى تنقطع من دونها الرقاب .

وعلى هذا النحو كان أبو بكر الصولى شاعراً ناقداً عالمًا ، وكان مثقَّفًا ثقافة واسعة بكل مواد المعرفة فى عصره . ولم يصل إلينا ديوانه ولكن وصلت طائفة من أشعاره التى كان يُنْشدها الراضى فى حفلات القصر وفى المناسبات المختلفة دوَّنها بنفسه فى أخباره ، كما وصلت إلينا مقطوعات متنوعة احتفظت بها الكتب الأدبية والتاريخية . وسقطت من يد الزمن مدائحه فى المعتضد إلا بعض أبيات دالية ذكر المسعودى أنه أنشدها فى قصيدة مدحه بها ، وفيها يقول :

لَأَمِيرُ المؤمنين المعتضدْ بحرُ جودٍ ليس يَعْدوه أَحدْ

ولم يصل إلينا من مديحه للمكتفى سوى قصيدة واحدة ، وقد اضطر — كما يقول — إلى أن ينشدها المتقى حين استولى على مقاليد الخلافة ، وكان قد طُلب إليه أن ينشده عاجلا قصيدة يهنئه فيها بالخلافة ، ويقول إنه وضع فيها كلمة المتقى بدلا من كلمة المكتفى ، وفيها يقول :

مددت على الإسلام أكنافَ نعمةٍ لأعطافها ظلٌّ عليه ظَلِيلُ
ولولا بنو العباس عمِّ محمَّدٍ لأصبح نور الحق فيه خُمول
لكم جبلا اللهِ اللذان اصطفاهما يقومان بالإسلام حين يميل
نبوَّته ثم الخـلافةُ بعدها وما لهما حتى اللِّقاءَ حَوِيلُ[1]

وكلٌّ ما فى القصيدة من صياغة وخيال يدلُّ على أن الصولى كان يتكلف هذا المديح تكلفًا. حقًّا هو يبالغ فيه ويغلو على عادة شعراء الدعوة العباسية، ولكن نحس أن الكلام يفقد الروح وأنه لا يصدر عن عاطفة حقيقية، وبالمثل ما رواه له عريب فى ذيل الطبرى من مديح للمقتدر، وحتى الراضى تلميذه الذى أغدق عليه عطاياه حتى لكأنما تحولت إلى نهر فياض نجد فى مدائحه له نفس هذا الطراز المتكلف. وكان لا يترك مناسبة من عيد أو نيروز أو فتح إلا أنشده فيها قصيدة، وقد تطول طولا مسرفًا، ومع ذلك نفقد فيها الحرارة من مثل قوله يهنئه بانتصار جيوشه على مردويج الثائر بأصبهان:

آنَسَ الله بالخليفة مُلْكاً مُوحِشَ الرَّبْعِ واهنَ التأسيسِ
يا نسيمَ الحياة أضحكت دهرًا كان لولاك دائمَ التَّعْبِيسِ
مرْدويجٌ بسيف حَظِّك مقتو لٌ فأَهْوِنْ بذاك من مَرْموس[2]
قَصَفَتْهُ رياحُ أيامك الغُرِّ فأَخْمَدْن منه نار المجوسِ
وتولَّتْ بمأتم الدَّهر أيا مٌ أتتنا تجرُّ ذيل العروسِ

والتكلف واضح فى الأبيات، والصور لا تقع فى مكانها، فالخلافة كانت موحشة وكانت واهنة، والخليفة نسيم الحياة، نسيم أضحك دهراً كان عبوسًا قمطريراً ومردويج لم يهزمه أبطال الدولة وإنما هزمه الحظ ورياح دولة الراضى الغراء، وخلعت الأيام سواد الحزن، وجاءت تجر ذيول الفرح. كلام متلاصق، وليس شعراً حيًّا نابضًا بروح، وربما كانت خير قصائده فيه قصيدته الدالية التى أنشدها فى مجلسه لسنة ٣٢٧ وفيها يقول:

(١) حويل: تحول.
(٢) مرموس: من الرمس وهو القبر.

خليفةٌ أُكْمِلَتْ فضائلُهُ ففَرْعُهُ طيِّبٌ ومَحْتِدُهُ
تعبَّـــد المجد فهو يَمْلكه طـــارفُه عنده ومُتْلَدُهُ
قد رضى الراضىَ الإلهُ لإصـ ـلاح زمان سِواه مفسدهُ
فهو بتفويضه الأمور إلى اللـ ـهِ بحسن التوفيق يعضدهُ

ولا يخفى ما فى هذه الأبيات من تكلف يتضح فى بناء الشطر الثانى من البيت الأول على سابقه . كما يتضح فى جعل المجد عبداً للممدوح وكأنه استذلَّه ، والجناس بين رضى والراضى شديد التكلف ، وكلمة سواه نابية فى مكانها غير مستقرة والصياغة فى البيت الرابع تتنافر أجزاؤها تنافراً شديداً . ومن هذا الطراز نفسه عزاؤه للراضى فى أخيه هرون ، وهو يستهلُّه على هذا النمط :

تَعَزَّ يا خير الوَرَى عن أَخٍ لم يَشُبِ الإخلاص باللَّبْسِ
كان صديقاً وافرًا ودُّهُ صداقةَ الأَنفس والجِنْسِ
تعزَّ عنه بنبيِّ الهُدَى محمَّدٍ إذْ حَلَّ فى الرَّمْسِ

والقصيدة مزيج من الندب والتأبين والعزاء ، مع أنه افتتحها بطلب التعزّى والتَّسلى ، فكان ينبغى أن يقصرها على العزاء لا أن يندب فى هرون إخلاصه وصداقته لأخيه كما فى هذه الأبيات ، ولا يحاول أن يذكر همته وسؤدده مؤبناً له كما فى أبيات تالية . ونحس نبوًّا شديداً فى البيت الثانى إذ يذكر عن هرون أنه كان وافر الودّ ، وكان يحسن أن يغير كلمة وافر بكلمة أخرى مثل صادق ، وأيضًا فإنه جعل صداقته لأخيه صداقة جنس . والتعبير عن الرسول عليه السلام بأنه حلَّ فى الرمس خلو من رهافة الحس أو من الحس الأدبى الدقيق . وقد يكون مصدر التكلف فى العزاء والمديح جميعًا أنه كان مواليًا للعلويين كما قال بعض من ترجموا له ، وكأن هذا الرثاء والمديح لم يكونا يتصلان بروحه وقلبه ، فقلبه وروحه مع آل أبى طالب ، ولسانه وحده مع العباسيين ومع ما يغدقون عليه من صلات ثَرَّة . وقد يشهد لذلك أننا إذا تركنا مدائحه لبنى العباس ونظرنا فيما رُوى له من غزل لقيتْنا له مقطوعات كثيرة بديعة من مثل قوله :

أَحْبَبْتُ من أجله منْ كان يشبهه وكلُّ شيءٍ من المعشوق معشوقُ
حتى حكيتُ بجسمى ما بمقلتِه كأَن سقمىَ من جفنيه مسروق

وقوله يصف الدموع فى ساعة الوداع ، وهى تسقط بيضاء سقوطًا متتابعًا على خدود حمراء حمرة الورد فى الربيع :

لو كنت يوم الوداع حاضرنا وهنَّ يطفئن لوعة الوَجْدِ
لم تر إلا الدموع جاريةً تسقط من مقلة على خَدِّ
كأَن تلك الدموع قطر نَدًى يقطر من نَرْجس على وَرْدِ

وكان ينفذ فى أثناء ذلك إلى كثير من الصور النادرة الغريبة التى تنبئ عن شاعرية جيدة من مثل قوله فى بيان إعجابه بغناء إحدى القيان :

وغناءٍ أَرق من دمعة الصَّـ ـبِّ وشكوى المتيم المهجورِ

وله فى وصف أرمد ومحاولة تعليل رمده بعلة غريبة لا تقع إلا فى عقل واهم بعيد الخيال بيتان كان القدماء يعجبون بهما إعجابًا شديداً إذ يقول :

يكسر لى طرفاً به حمرةٌ قد خلط النرجس فى وردِهِ
ما احمرت العين ولكنه يكحلها من وَرْدتَىْ خَدِّهِ

وكأن هذه الأبيات وما وراءها من أبيات فى الخمر لم نَرْوها كانت تصدر عن نفسه ، مما جعل صياغتها سَوِيَّةً وأخيلتها بديعة بعيدة الغرابة فى بعض الأحيان . وله بجانب ذلك حِكَمٌ يصوّر فيها عِبَرَ الدهر ومواعظه من مثل قوله :

يابانياً والدهرُ فى نقضه يا راكضاً يسرع فى رَكْضه
يلهو وأيدى الموت أَخَّاذةٌ من طوله طورًا ومن عرضه

فالإنسان يَبْنى ، ولا يعرف أن داره ستنقضُّ بعد أيام ، بل هو نفسه سينقضُه الدهر ويحيله ضعفًا من بعد قوة ، يوهن عظمه وينحل جسمه ، ويَحْنِى

ظهره ويأخذ من طوله ومن عرضه ، حتى يصبح أنقاضًا خالصة ، وكأنما الدنيا أضغاثُ أحلام . والصولى فى كل هذه المقطوعات الأخيرة شاعر بارع ، لا تنقصه جزالة الصياغة ولا روعة الخيال .

٢

شعراء الشيعة

ذكرنا فيما أسلفنا أن الخوارج خمدت دعوتهم وحروبهم منذ العصر العباسى الأول ، وعمّ هذا الخمود فى هذا العصر التالى بحيث لم يعودوا يكوّنون حزب معارضة حقيقيًّا للدولة العباسية ، وقد نهض بتلك المعارضة فى أحدّ صورها حزب الشيعة فكان كثير من العلويين يخرجون ويُعْلنون خروجهم ويشهرون هم وأنصارهم سيوفهم فى وجه الدولة ، وكانت تلقاهم بجيوشها وقلما كُتب لهم النصر ، ولكن ما كانت حرب لهم تكاد تخمد حتى تنشب حرب أخرى ويشتد أوَارها وبذلك ظلت المعارك بينهم وبين الدولة محتدمة طوال العصر . وتنبّه لذلك المتوكل ، فرأى أن يقف زيارة الشيعة لقبر الحسين وبكاءهم عنده وتفجعهم عليه ، ومضى يأخذهم بغير قليل من الشدة ، محرّضًا شعراءه على النَّيْل منهم ومن آل على عامة ، وأمر — فيما أمر — بحبس الطالبيين فى سامرّاء[1] وأخذ يُنْزِل بهم نكالا شديداً ، ومع ذلك لم يسلم عهده من خروج نفر منهم فى الحجاز على نحو ما سنرى عما قليل فى حديثنا عن محمد بن صالح العلوى .

ولا بد أن نلاحظ أن الكوفة كانت لا تزال أكبر مركز للشيعة وأن مذاهبهم التى عرفناها فى العصر العباسى الأول كانت لا تزال حية ، فكان كثيرون يؤمنون بالنظرية الزيدية ، وأكثر منهم من كان يؤمن بالنظرية الإمامية الاثنى عشرية ، وأخذت النظرية الإسماعيلية تجد لها أنصاراً ، واستغلها القرامطة فى ثورتهم ، دون أن تصبح عقيدة حقيقية لهم ، وبذلك كان ينبغى أن ننحيهم عن الشيعة . وملاحظة ثانية هى أن المذهب الشيعى الذى غلب على العراق حينئذ كان مذهب الإمامية ، وكان يجعل

(١) أغانى (ساسى) ١٩ / ١٤١ .

التقية أصلا من أصوله، فكان يعمل سرًّا وقلَّما عمل جهراً ، وكان يأذن لأنصاره أن يمدحوا العباسيين تقيَّة ، ومضى كثيرون منهم يمدحونهم طلبًا لما فى أيديهم من أموال ، وهم يُسِرُّون لهم كرهًا وحَنَقًا ، ومن هنا كنا كثيراً ما نقرأ عن شاعر أنه مدح هذا الخليفة أو ذاك ويُقال إنه كان يتشيع . وهم أكثر من أن نسميهم أو نحصيهم . وملاحظة ثالثة هى أنه قيل شعر شيعى كثير فى العصر ، وهو موزَّع بين بعض آل البيت وبين أنصارهم ممن يَنْشُدون الشعر وينظمونه ، ومن أهم الشعراء العلويين حينئذ محمد بن صالح العلوى الآنف ذكره والحِمَّانى وسنخصه هو الآخر بترجمة قصيرة ، ومنهم محمد[1] بن على بن عبد الله أحد أحفاد العباس بن على بن أبى طالب ، وكان فى أيام المتوكل ، وهو يكثر من الافتخار بآبائه وبنسبه الطاهر إلى الرسول الكريم ، ويردّد فى أشعاره نظرية بيته العلوى فى الخلافة وأن الرسول عليه السلام أوصى بها إلى جده على حين نزل بغَدير خُمّ إذ قال له : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى » وإلى ذلك يشير بقوله :

وجدِّى وزيرُ المصطفى وابن عمِّه ... علىٌّ شِهابُ الحرب فى كل ملْحَمِ
وأول من صَلَّى ووحَّد ربَّه ... وأفضل زوَّار الحطيم وزمزمِ
وصاحب يوم الدَّوح إذ قام أحمدٌ ... فنادى برفع الصوت لا بِتَهمْهُمِ
جعلتك منى يا علىُّ بمنزلٍ ... كهُرون من موسى النجىِّ المكلَّم

وما نصل إلى سنة ٢٥٠ فى عصر المستعين حتى تثور ثائرة الشعراء الشيعيين ، وذلك أنه كان قد أعلن الثورة فى الكوفة يحيى بن عمر الطالبى ، وكان قد تورَّع عن أخذ أموال الناس ظلمًا وأمر بحقن الدماء ، وكان ورعًا زاهداً ناسكًا ، فتبعته ألوف ، ونشب القتال بينه وبين جيوش محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وجنوبى العراق . وتمزَّقت جموعه ، وخَرَّ قتيلا ، وحُمِل رأسه إلى بغداد . وضَجَّ الناس لمقتله وصَلْب رأسه ، ويُرْوَى أنه لما جلس محمد بن عبد الله بن طاهر للشعراء يستقبل تهانيهم بالفتح دخل عليه أبو هاشم الجعفرى ، وقال له : أيها الأمير إنك لتهنَّأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه حيًّا لعُزِّى به ، فلم يجبه

---

(١) انظر فيه معجم الشعراء ص ٣٨١ .

الأمير ، فولّى وجهه خارجًا ، وهو يقول[١] :

إن وِتْرًا يكون طالبَه الله لِوِتْرٌ نجاحُه بالحرىّ

ونصب له الشيعة مأتمًا كبيرا ناح فيه الشعراء وبكو اطويلا ، ومرت بنا فى غير هذا الموضع مرثية ابن الرومى له ، وهى صرخة من أعماقه تناول فيها العباسيين تناولا ذميمًا ، واصفًا لهم بالظلم والطغيان هم وولاتهم ، ومنذراً برجوع الحق إلى نصابه ، بل متوعداً بجيش يأخذ بثأر يحيي ويدمر خصومه تدميراً . وكثر رثاؤه وندبه والنواح عليه بمثل قول أحمد بن أبى طاهر[٢] :

سلامٌ على الإسلام فهْو مودِّعٌ إذا ما مضى آلُ النبىِّ فودَّعوا
فقدنا العُلا والمجد عند افتقادهم وأَضحتْ عروش المكرمات تَضَعْضَعُ
لقد أَقفرتْ دارُ النبى محمَّدٍ من الدين والإسلام فالدارُ بَلْقَعُ
وقُتِّل آلُ المصطفى فى خلالها وبُدِّد شَمْلٌ منهم ليس يُجْمعُ

وسرعان ما يثور فى نفس السَّنَة بطبرستان الحسن بن زيد العلوى سَلِيل الحسن بن على بن أبى طالب ، ويغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب ومعارك كثيرة ، ويظل مسيطراً عليها إلى أن يلبى نداء ربه لسنة ٢٧٠ وطبيعى أن يصبح مقصداً للشعراء ، وأن يتغنى غير شاعر باسمه فى المناسبات المختلفة ، ونجد شاعراً من جرجان يسمى محمد بن إبراهيم يهنئه حين افتصد بقوله[٣] :

قد رأَينا مجالساً عطراتٍ هُيِّئَتْ عندنا لفَصْدِ الإمامِ
إنما غيَّب الطبيبُ شَبا المِبْ ضَع عندى فى مهجة الإسلام
سُرَّتِ الأَرض حين صُبَّ عليها دمُ خَيرِ الوَرَى وأَعلى الأَنام

والنزعة الشيعية واضحة فى الأبيات . وكان من الشعراء حينئذ من يستر تشيعه ماكراً برجال الدولة العباسية ، إذ ينزل عليهم بسياط هجائه ، لا لشىء إلا لأنهم

---

(١) الطبرى ٩ / ٢٧٠ والمروج ٤ / ٦٤ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٦٤ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧

يخاصمون آل على ، وربما اتخذ لذلك وسائل ماكرة ، وممن اشتهر بهذه الطريقة أبو نعامة الدقيقى الكوفى ، إذ قال الرواة إنه استنفد شعره فى هجاء رجال الجيش العباسى ، يرميهم بالأبنة ، وصنع فى قوّادهم ورؤساء الدولة قصيدة مزدوجة سماها السنيّة ، رماهم فيها بالقبائح الشنيعة . وما زال هذا شأنه ، حتى تصادف أن دخل بغداد مفلحٌ القائد التركى فى طريقه إلى حرب صاحب الزنج ، فدلّه عليه قوم من أهل بغداد ، وقالوا إنه يتشيع وشهدوا عليه بالرّفض ، فضربه مفلح بالسياط حتى تلفت نفسه ومات لسنة ٢٦٠ .

وكان قد خلّف الحسنَ بن زيد على طبرستان حين توفى أخوه محمدٌ ، واستقام أمره فيها وعظم شأنه ، فدخل ديار الدّيلم ودانت له ، حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ جهّز جيوشًا كثيرة من الديلم وغيرهم لغزو جرجان ، فلقيته جيوش إسماعيل بن أحمد السامانى صاحب خراسان من قبل العباسيين ، ودارت عليه الدوائر وأثخنَ بالجروح ، وتوفى ، فدُفن بباب جُرْجان ، يقول المسعودى : وقبره هناك معظم إلى اليوم . ويبدو أنه كانت له بطانة كبيرة من الشعراء تنصر دعوته من مثل محمد بن حبيب الضبىّ القائل فيه[1] :

إن ابن زيدٍ كلَّ يوم زائدٌ علا علوًّا لا يساويه أحَدْ

لو صال بالطود إذن أذلّه أو زجر البحر إذن صار زَبَدْ

وأهم من هذا الشاعر شاعر يسمى أبا المقاتل نصر بن نصير الحُلْوانى ، نراه يغلو فى مديحه ، حتى لنصبح وكأننا بإزاء بعض غلاة الشيعة وما يحيطون به أئمتهم من هالة قدسية ترفعهم عن البشر درجات ، وفيها يقول[2] :

لا تقل بُشْرَى وقُلْ لى بُشْرَيانِ غُرَّة الداعى ويوم المهرجان

ابن زَيْدٍ مالكٌ رِقَّ الزمانِ بالعطايا والمنايا والأمانى

خُلِقَتْ كفّاه مَوْتاً وحياةً وحوتْ أخلاقُه كُنْهَ الجنانِ

مختفٍ فكرتُه فى كل شىءٍ فَهْوَ فى كل مَحَلٍّ ومكان

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٥١ .

يتناءى لفظنا عنه ولكن هو بالأوصاف فى الأذهان دان
كافرٌ بالله جَهْرًا والمثانى كلُّ من قال : له فى الخلق ثانِ

ويبدو أن محمد بن زيد كان قد خطا فى الدعوة الشيعية خطوات فسمّى نفسه الداعى ، وأخذ يوحى إلى الشعراء أن يُسْبغوا عليه صفات إلهية ، فهو ظاهر فى العيان ، وهو مختف فى كل مكان ، وهو لا تحدُّه الألفاظ ، وإنما تقرّبه الأوصاف وليس له ندٌّ ولا شبيه ، وكافر بالله والمثانى السبع أو القرآن من يقول له فى الخلق ثان . ونحن نعرض ثلاثة من شعراء الشيعة منهم اثنان علويان والثالث من الأنصار المخلصين ، وهم محمد بن صالح العلوى والحِمّانى والمفجّع البصرى .

محمد بن صالح العلوى (١)

من فتيان البيت العلوى وشجعانه وشعرائه، امتعض لبيته حين أنزل به المتوكل ما أنزل من سخطه وغضبه ، وما كان من هدمه لقبر الحسين ومنعه الناس من زيارة قبره وقبر أبيه على بالنجف . وكان موطنه سُوَيْقَة فى بادية الحجاز كان ينزلها مع أسرته من الحسنيين أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب ، فعزم على الخروج وأخذ يجمع الناس لذلك ، وتصادف أن حجّ بالناس فى نفس السنة أبو الساج أحد قواد المتوكل الترك فسمع بنيّته وأنه لبس البياض مع كثير من أنصاره ، وكأن البياض كان حينئذ يتخذ شعاراً للعلويين ضد العباسيين المسوّدين أو الذين يتخذون السواد شعاراً لهم . وفاجأه هو وأنصاره أبو الساج فأخذهم وقيّدهم وقتل نفراً منهم وأخرب سويقة وحرق منازلهم بها واستأصل كثيراً من نخلها وأثر فيها آثاراً سيئة ، وحمل محمد بن صالح فيمن حمل منهم إلى سامرّاء ، فحُبس ثلاث سنوات ، ثم عفا عنه المتوكل بسبب شعره وبفضل وساطة وزيره الفتح بن خاقان له ، وذلك أنه نظم أبياتًا جيدة يعزّى فيها نفسه عن حبسه ، ويتجمّل بالصبر قائلا :

---

(١) انظر فى محمد بن صالح الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٦/٣٦١ ومقاتل الطالبيين للأصبهانى (طبعة الحلبى) ص ٦٠٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ .

طَرِبَ الفؤادُ وعاودَتْ أحزانُه ... وتشعَّبَتْ شُعَباً به أشجانُهُ
وبَدا له من بعد ما اندمل الهَوَى ... بَرْقٌ تألَّق مَوْهِناً لمعانُهُ
فدنا لينظر كيف لاح فلم يُطِقْ ... نظرًا إليه وردَّه سَجَّانُهُ
فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضلوعُه ... والمـاء ما سحَّتْ به أجفانُه
ثم استعاذ من القبيح وردَّه ... نحو العَزاء عن الصِّبا إيقانُه
وبَدَا له أن الذى قد ناله ... ما كان قدَّره له دَيَّانُه

والشعر جزل مصقول ، والشاعر يبثُّ فى أوائله حنيناً لأيامه الماضية وكأنها عهود هوى وحب سقطت منه، وينظر إلى البرق متطلعًا لليوم الذى تُرَدُّ إليه فيه حريته، فيعنف به السجَّان، ويحس كأن نار الوجد اندلعت فى ضلوعه ظَمَئًا إلى أهله وموطنه . وتسحُّ الدموع وتنهل لا تجفّ ، ويرده إيمانه ويقينه، فيستسلم للقضاء مخزون الفؤاد شجيَّه . وتشيع الأبيات وتصل إلى سمع الفتح بن خاقان ومغنى المتوكل بنان ، ويصنع بنان فيها صوتًا يلحنه أمام المتوكل فيستحسن الشعر واللحن ويسأل عن قائله ، فيُذْكَرُ له، ويكلمه الفتح فى أمره وما يزال يرقق قلبه حتى يعفو عنه، غير أنه يشترط أن يظل عند الفتح وفى يده وألا يبرح سامرَّاء حتى لا تحدثه نفسه بالعودة إلى الثورة. وتُرَدّ إليه حريته فيمدح المتوكل ويُغْدق عليه من صلاته ، كما يمدح المنتصر . ونراه يبالغ فى التقية من المتوكل فلا يكتفى بمديح له عام ، بل يسوق الدليل والبرهان على أن العباسيين أحق من العلويين بالخلافة ، يقول :

يابنَ الخلائف والذين بِهَدْيهِمْ ... ظهر الوفاء وبانَ غَدْرُ الغادرِ
وابنَ الذين حَوَوْا تُراثَ محمَّدٍ ... دون الأقارب بالنصيب الوافر
نطق الكتابُ لكم بذاك مصدِّقاً ... ومضَتْ به سُنَنُ النبيِّ الطاهر

وهو يشير فى البيت الأخير إلى قوله تعالى ذكره فى سورة الأنفال : (وأولوا الأرحام بعضُهم أوْلَى ببعضٍ فى كتاب الله) يريد أن العباسيين مقدَّمون فى وراثة الخلافة على أبناء بنت الرسول عليه السلام، لأن العم يتقدمهم فى الميراث كما تنصُّ

على ذلك شريعة الإسلام فى القرآن الكريم ، وكما مضت بذلك السنة النبوية الطاهرة . ولم يتورَّط فيما كان يتورط فيه شعراء بغداد من التعلق بالجوارى والإماء ، فقد كان يَكْلَفُ بزوجه وحدها ، وكانت تَحتلُّ قلبه بجمالها ، ويُشْغَفُ بها شغفًا شديداً وفيها يقول :

لعمرُ حمدونةَ إنى بهـا لمُغْرَمُ القلب طويلُ السَّقَامِ
مجاوزٌ للقدر فى حبها مباينٌ فيها لأَهل الملام
جشَّمنى ذلك وجدى بها وفَضْلُها بين النساءِ الوِسام
زَيَّنها الله وما شانهـا وأُعطيتْ مُنْيَتَها من تمام

وكان جميل المحضر حلو الحديث رقيق الشمائل ، فانعقدت الصداقة بينه وبين نفر من الأدباء ، فى مقدمتهم سعيد بن حميد أحد كتَّاب الديوان المجيدين ومِمَّنْ كانوا يحسنون صنع الشعر بجانب إحسانهم لفن الكتابة ، وكان محمد بن صالح يمنحه وُدًّا حقيقيًّا وفيه يقول :

أصاحبُ من صاحبت ثُمَّتَ أَنثنى إليك أَبا عثمانَ عطشانَ صادِيا
وكنا إذا جِئْناك لم نَبْغِ مشرباً سواك وروَّينا العظام الصَّواديا

وتصويره لمودته له وأن عطشه للقائه يبلغ منه عظامه تصوير جيد ، وكان إبراهيم ابن المدبر زميل سعيد فى الدواوين يُوليه فضلا كثيراً ، وانعقدت بينهما صداقة وثيقة حتى كانا يُمْضيان كثيراً من الليالى والأيام معًا لا يفترقان ، وله رائية طويلة فى مديحه ، وفيها يقول :

أَخٌ واساك فى كَلَبِ الليالى وقد خَذَل الأَقاربُ والنَّصِيرُ
فإن تشكر فقد أَولى جَمِيلاً وإن تكفر فإنك للكفورُ

وله مقطوعة يصور فيها جوارى يندبن ويلطمن عند قبر لبعض ولد المتوكل ، وهو فيها يتحدث عن فتور عيونهن وجمالها ، ويخال كأنما سينفخ هذا الجمالُ

الفاتن فى العظام الهامدات ، فتعود مرّة ثانية إلى الحياة الدنيا ، يقول :

رأيت بسامرّا صبيحةَ جُمْعَةٍ عيوناً يروق الناظرين فتُورُها
تزور العظامَ الباليات لدى الثَّرَى تجاوزَ عن تلك العظام غَفُورُها
فلولا قضاءُ الله أن تَعْمُرَ الثَّرَى إلى أن ينادَى يوم يُنْفَخُ صُورُها
لقلتُ عساها أن تعيش وأنهـا ستُنْشَرُ من جَرَّا عيونٍ تزورها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصوّر شاعرية محمد بن صالح العلوى الفذّة ، ويُظلّله عصر المنتصر فيصيبه فيه جُدَرِيٌّ ويلبى نداء ربه ، ويرثيه غير صديق باكياً خِصالَه الحميدة .

الحِمّانى العَلَوِىّ

سُمى الحِمّانى نسبة إلى حى بالكوفة نشأ وعاش فيه ؛ وهو على بن محمد بن جعفر العلوىّ ، خرج أبوه محمد الملقب بالديباجة فى المدينة لأوائل عصر المأمون قبل تحوله من خراسان إلى بغداد ، غير أن ثورته ضد العباسيين لم تنجح ، وحُمل إلى بغداد ، ونُفى منها إلى خراسان ، فنزل بساحة المأمون هناك ، وسرعان ما وافاه الموت ويقال إنه لما حمل الرجال نعشه دخل المأمون بين عموديه ، فاشترك فى حَمْله حتى نزوله فى لحده ، وكان مما قال : هذه رَحِمٌ مجفوّة منذ مائتى سنة .

وانتقلت أسرة الديباجة بعده إلى الكوفة ، وبها نشأ ابنه على ، وعُنيت الأم والأسرة بتثقيفه ، فلم يُحْسِن صنع الشعر فحسب ، بل أحسن صنوفاً من الآداب وعلوم الشريعة ، مما جعل العلويين فى تلك البلدة يختارونه نقيبهم ومدرّسهم ولسانهم ، كما يقول المسعودى . ونُمى إلى المتوكل أن فى داره سلاحاً وأن الشيعة يجتمعون عنده ، وقيعة فيه من بعض حساده ، فوجّه إليه جنداً اقتحموا عليه داره فجأة ، فوجدوه يتعبّد ربه فى غرفة مغلقة مرتدياً ثوباً بسيطاً من الصوف ،

(١) انظر فى الحمانى وأشعاره مروج الذهب ٤ / ٢٩ ، ٦٥ ومقاتل الطالبيين ص ٦٦٢ وكتاب الزهرة نشر نيكل طبع بيروت سنة ١٩٣٢ (انظر الفهرس) وكتاب الديارات ص ٢٣٧ والمختار من شعر بشار للخالديين ص ١٦ ، ٢٥١ وديوان المعانى ١ / ١٠٩ ، ٢ / ٦٥٨

ولا بساط فى البيت إلا الرمل والحصى ، وهو يتلو القرآن مترنمًا بآيه . فحملوه إلى المتوكل ووصفوا له ما يعيش فيه من شظف ، فرقّ له ، وسأله : ما يقول آل بيتك فى العباس بن عبد المطلب (جد العباسيين) ، فأجابه بقوله : وما يقول آل بيتى يا أمير المؤمنين فى رجل افترض الله طاعة نبيه على خلقه وافترض طاعته على نبيه ؟ ولان قلب المتوكل له فأمر بإعطائه أربعة آلاف دينار ، وقيل بل مائة ألف درهم . ولم يُرِدِ الحِمّانى فى إجابته ظاهرها من طاعة العباس على نبيه كما يتضح فى الشطر الثانى من الجواب ، وإنما أراد طاعة الله على نبيه .

ومرَّ بنا أن الشعراء أكثروا فى عصر المتوكل من ذمّ العلويين إرضاء له ، وكان من أكثرهم قَدْحًا فى على وآله على بن الجَهْم وكان ينتسب إلى بنى سامة بن لؤىّ القرشيين ، وافتخر مراراً بهذا النسب فى أشعاره ، وكان طبيعيًّا أن لا يسكت الحِمّانى على هذا القَدْح ، وخاصة أنه تتداوله الألسنة وتعمل بغداد على نشره ، فطعن على بن الجَهم طعنة بطعنات ، ولكن لا بالقدح فى خلقه وعِرْضه على عادة الشعراء فى عصره ، وإنما بالقدح فى نسبه إلى سامة ، فهو ليس من أحفاده ، وبالتالى ليس قرشيًّا ولافيه من القرشية شىء يقول :

وسامةُ مِنَّا فأما بنوه فأمرهمُ عندنا مظلمُ
أناسٌ أتونا بأنسابهم خرافةَ مضطجعٍ يَحْلُمُ

وعرف على بن الجهم له فضله وحقه وحق أسرته العلوية ، فلم ينبس ببنت شفة واجداً عليه ولا هاجياً ، وإنما اكتفى بأبيات ينوّه فيها بفضله ، ويعترف له فيها بحقه وحقوق بيته .

وقد حزن الحِمّانى حزنًا شديداً على ابن عمه يحيى بن عمر حين خرج لعهد المستعين داعيًا لنفسه بالخلافة ، وقُتل دون أمنيته ، وحدث أن الحسن بن إسماعيل قائد الجيش الذى نَكَّل به دخل الكوفة عقب انتصاره مهدّداً متوعداً ، ولم يمض الحمانى للسلام عليه ، وكان الوحيد الذى تَخلّف من العلويين عن لقائه ، ولاحظ ذلك الحسن بن إسماعيل ، فبعث إليه بجماعة أحضروه حتى إذا دخل مجلسه أظهر شجاعة

وجَلَداً وأنه لا يخشى سطوة القائد ، ولم يلبث أن أنشده :

قتلت أعزَّ مَنْ ركب المطايا وجئتك أَسْتلينك فى الكلامِ
وعزَّ علىَّ أن ألقـــاك إلا وفيما بيننـــا حَدُّ الحِسَامِ

وهو موقف كريم إذ لم يتملق القائد كما كان يظن ولا داراه ، بل جاهره بما فى نفسه دون خوف أو وجل . وله مراث كثيرة فى يحيى ، يبكيه فيها ويندبه ، ويصور أنه مات موتاً كريماً ، موت البطل الشجاع الذى لا يرهب الموت بل يلقاه فى قوة وصلابة مهما ادلهمت الخطوب من حوله ، ومهما أظلمت الدنيا فى عينيه ، حتى لتهول بطولته خصومه ، وحتى ليطلبون لقبره السُّقْيا وله الرحمة ، يقول :

فإن يَكُ يحيى أدرك الحتفُ يومه فما مات حتى مات وهْو كريم
وما مات حتى قال طلاَّب روحه سقى اللهُ يحيى إنه لصميم

ويصوّر فى مراثيه له مأساة البيت العلوى وأن أفراده دائماً بين قتيل وجريح . وللحِمّانى مراث كثيرة — بجانب مراثيه لابن عمه يحيى — فى أهله ، وفى أخيه لأمه إسماعيل وهو لا يرثى فيه الأخ والرحم القريبة فقط ، بل أيضاً يرثى الصديق شقيق النفس والروح ، ويتفجّع عليه تفجعاً شديداً بمثل قوله :

هذا ابن أمى عديل الروح فى جسدى شَقَّ الزمانُ به قَلْبى إلى كبدى
مَنْ لى بمثلك يا روحَ الحياة ويا يمنى يدىَّ التى شُلَّتْ من العَضُدِ
قد ذُقْتُ أنواعَ ثُكْلٍ أنت أبلغها على القلوب وأَخناها على الجَلِدِ
فاليوم لم يبق شىء أستريح له إلا تفتُّت أحشائى من الكمد
قل للرَّدى لا يغادرْ بعده أحدًا وللمنيَّة مَنْ أَحْبَبْتِ فاعتمدى
إن السرور تقضَّى ، بعد فُرْقتهِ وآذن العيشُ بالتكدير والنَّكدِ

والمرثية مؤثرة وهى سيل من الدموع والزفرات والأنين الموجع . وللحِمّانى

غزليات كثيرة تتداولها بعض كتب الأدب وهى تنُمُّ على شعور رقيق وخيال خصب من مثل قوله :

متى أرتجى يوماً شفاءً من الضَّنَا إذا كان جانيه علىَّ طبيبي

وله فخر يتحدث فيه عن آبائه . ويصوّر سمو نفسه وارتفاعها عن النقائص ، كما يصور كبر همته وأنها ملء قلبه بل أكبر من قلبه ، يقول :

قلبي نظير الجبل الصعبِ وهمتى أكبر من قلبي
فاستخرِ اللهَ وخُذْ مُرْهفاً وافتك بأهل الشرق والغرب
ولا تمتْ إن حضرت ميتةٌ حتى تميتَ السيف بالضرب

وهو ممن أكثروا من ذم الشيب وكراهته ، وصوَّر ذلك فى أشعار كثيرة كأن نراه يكره الشيب ويكره مفارقته لأنها تعنى فقده للحياة ، وكأنه — على بغضه له — يود أن لا يفارقه ، يقول :

بكى للشيب ثم بكى عليهِ فكان أعزَّ فقدًا من شبابِ
فقل للشيب لا تَبْرَحْ حميدًا إذا نادى شبابُك بالذهاب

وبجانب ذمه للشيب يأسى كثيراً على الشباب وأيام لهوه ومتاعه بالنظر إلى الغانيات فقد ضل ذلك منه، أضله الشيب ، وهل من غانية تنظر إلى شيخ فان ، يقول :

لقد كنت تملك ألْحَاظَهُنَّ فصِرْنَ يُعِرْنَك لحْظاً مُعارا
وأصْبحْنَ أعْقَبْنَ بعد الودادِ بِعادًا وبعد السكون النِّفارا

وله وصف كثير فى سُرَى الليل وفى اعتساف الفلوات بالإبل والخيل نجد منه مقتطفات فى كتب الشعر ، ومن طريف نعته لطول الليل وسكونه وجثومه على الكون دون أى حركة قوله :

كأن نجوم الليل سارت نهارَها ووافَتْ عِشاء وهْى أنضاءُ أسفارِ
فخَيَّمْن حتى تستريحَ رِكابها فلا فلكٌ جارٍ ولا كوكبٌ سارِ

وكان يكثر من ذكر المنازل والديار ، وله قصيدة بديعة يتحدث فيها عن المنازل القريبة من الكوفة مثل آثار قَصْرى الخَوَرْنَق والسَّدير ، وكانا من قصور الحيرة ، وديارات الأساقف المطلة على نهر الغدير هناك وما حول هذه المنازل من رياض نضرة ترفّ فيها الأنوار والأزهار ، ومن قوله فى تلك القصيدة :

كم وقفةٍ لك بالخوَرْ ... نقِ لا توازَى بالمواقف
بين الغدير إلى السَّدي ... ر إلى ديارات الأَساقف
دِمَنٌ كأَن رياضَها ... يُكْسَيْنَ أعلامَ المطارف
تلقى أوائلَها أوا ... خرُهـا بألوان الزخارف

وواضح من هذه الأشعار التى وقفنا عندها للحمانى أنه كان شاعراً مجيداً ، فعنده كثير من الخواطر والأخيلة البارعة ، وبالغ بعض الشيعة المتحمسين له فقالوا إنه كان أشعر شعراء قَرْنه . وقد توفى سنة ٢٦٠ للهجرة .

المفجَّع البَصْرِىّ[1]

هو أبو عبيد الله محمد بن أحمد الكاتب ، عالم أديب ، وتدل كلمة الثعالبى فى اليتيمة أنه حين توفى ابن دريد العالم اللغوى الإخبارى المشهور سنة ٣٢١ قام مقامه فى التأليف والإملاء ، على أنه كان واسع الرواية وصاحب معرفة دقيقة باللغة والأخبار ، ويشهد لذلك أنه ترك مصنفات مختلفة مثل كتاب سماه كتاب الترجمان فى الشعر ومعانيه . وفى كتاب الفهرست لابن النديم بيان كامل بأسماء مصنفاته . ويلفت النظر أنه شيعى وليس من أهل الكوفة بل من أهل البصرة ، ومعروف أن الكوفة كانت حتى القرن الثالث الهجرى مركز التشيع وداره . بينما كانت البصرة بعيدة عن التشيع وأهله[2] ، وكأنما امتد تيار التشيع مع نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع إلى البصرة ، وأخذت تتحول إلى مركز من مراكزه .

---

(١) انظر فى المفجع وأخباره وأشعاره اليتيمة للثعالبى (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ٢/ ٣٦٣ والفهرست ص ١٢٩ ومعجم الأدباء لياقوت ١٧ / ١٩٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ والوافى بالوفيات (طبعة إستانبول) ١/ ١٢٩ .

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فان فلوتن) ص ٩

ويبدو أن المفجع كان شيعيًّا إماميًّا ، فقد شاع مذهب الإمامية فى العراق من قديم ، ويقولون إن لقبه المفجع لزمه ببيت قاله ، وأكبر الظن أنه لُقب بهذا اللقب إشارة إلى تفجعه الكثير على قتلى العلويين ، وكان — على ما يظهر — يكثر من مديح الهاشميين ، وخاصة أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب الزينبى الهاشمى البصرى وفيه يقول :

للزينبيِّ — إلى جلالة قدره — خلقٌ كطعم الماء غير مزنَّدِ
وشهامةٌ تَقِصُ الليوث إذا سطا ونَدًى يفرِّق كل بحر مزبدِ[1]
يحتلُّ بيتاً فى ذؤابة هاشمٍ طالت دعائمه محل الفرقدِ
بضياء سنَّته المكارمُ تقتدى وبجـــود راحته السحائب تهتدى

وله قصيدة طويلة يمدح فيها عليًّا — رضى الله عنه — سماها « ذات الأشباه » إشارة إلى أثر مسند إلى أبى هريرة ذُكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وهو فى محفل من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم فى علمه ونوح فى همه وإبراهيم فى خلقه وموسى فى مناجاته وعيسى فى سِنِّه ومحمد فى هَدْيه وحلمه فانظروا إلى هذا المقبل . فتطاول الناس فإذا هو على بن أبى طالب» . وعلى هُدَى هذا الأثر نظم المفجع قصيدته مصوراً فيها مناقب على وهى تطَّرد على هذا النمط :

أيها اللَّائمى لحبِّى عَلِيًّا قُمْ ذميماً إلى الجحيم خَزِيًّا
أشبه الأنبيـــاء كهلا وزَوْلا وفطيماً وراضعاً وغَذِيًّا[2]
كان فى علمه كآدم إذ عُلِّـ ـم شَرح الأسماء والمكنيّا
وكنوح نَجَّى من الهُلْكِ مَنْ سَـ ـيَّر فى الفُلْك إذ علا الجُودِيًّا[3]
وجَفَا فى رضا الإله أباهُ واجتواه وعَـــدَّه أجنبيًّا
كاعتزال الخليل آزَرَ فى اللـ ـه وهجرانه أباه مَلِيًّا[4]
ولو أنَّ الوصىَّ حاول مَسَّ النَّـ ـجْم بالكف لم يجده قَصِيًّا

(١) تقص : تدق وتحطم .
(٢) الزول : الفتى .
(٣) الجودى : جبل بشمالى العراق .
(٤) آزر : أبو إبراهيم .

وطبيعى أن تفقد القصيدة العذوبة لأنها إلى الشعر التعليمى أقرب منها إلى الشعر الغنائى وافر النغم والألحان . وليس معنى ذلك أن شعره جميعه يجرى على هذا المنوال فالأبيات السابقة فى مديح الزينبى أسلوبها مستو وليس فيه استواء فقط ، بل أيضًا فيه جزالة ورصانة . ويقول الثعالبى إن شعره كثير الحلاوة يكاد يقطر منه ماء الظرف من مثل قوله :

زفراتٌ تعتادنى عند ذكرا ... ك وذكراك ما تريم فؤادى
وسرورى قد غاب عنىَ مذ غبـ ... ـتِ فهل كنتما على ميعادِ
ليس لى مَفْزعٌ سوى عبرات ... من جفونٍ مكحولة بالسُّهادِ
وبحسبى من المصائب أنى ... فى بلاد وأنتمُ فى بلادِ

وكان مثل أستاذه ابن دريد لا يجد بأسًا فى أن يُقْبل أحيانًا على الشراب ، إذا صح ما رُوى عنه من احتساء الخمر ، ونراه يصف مجلسًا من مجالسها فى ليلة من ليالى الأنس بها ، يقول :

أداروها ولِلَّيْل اعتكارُ ... فخلتُ الليل فاجأَه النهارُ
فقلتُ لصاحبى والليل داجٍ ... ألاحَ الصُّبْحُ أم بَدَتِ العُقارُ
فقال : هى العُقار تداولوها ... مُشَعْشَعةً يطير لها شَرارُ
ولولا أننى أمتاح منها ... حلفتُ بأنها فى الكأس نارُ

وبين أشعاره مقطوعات فى بعض الغلمان ، ومرَّ بنا ما قلناه من أن أكثر ما كان ينظمه الشعراء فيهم إنما كانوا ينظمونه دعابة وفكاهة على مجالس الخمر بقصد التندير والضحك ، ولذلك كان ينبغى ألا نصنع صنيع المستشرقين فى تضخيمهم لهذه السَّوْءة سواء عند المفجع البصرى أو عند غيره . ورآه « متز » ينظم قصيدة فى الجامع الكبير بالبصرة ومن فيه من الغلمان قائلا :

ألا يا جامع البَصْرِ ... ةِ لا خَرَّبك اللهُ
وسَقَّى صحنَك المُزْنُ ... من الغيث فـرَّواه

فكم ظبي من الإنسِ مليح فيك مَرْعـاه
نَصَبْنا الفَخَّ بالعلم له فيك فصِدْناه
وكم من طالبٍ للشِّعْـ ـرِ بالشعر طلبنـاه

فظن أنه وقع على وَصْمة كبرى ، وذهب يقول إن الشاعر يحكى كيف كان يُغْوى الصبيان فى الجامع المذكور ويستنزل العاصى الصعب منهم[1] . والدليل على أنه لم يكن خالص النية فى حكمه أنه أنشد القصيدة وأسقط منها هذين البيتين :

ألا يا طالبَ الأمر دِكذْبٌ ما ذكرناهُ
فلا يَغْرُرْك ما قلنا فما بالجِدِّ قُلنـاه

فالمفجَّع إنما قال ما قال من هذه القصيدة كذبًا وبهتانًا وعبثًا ودُعابة ، فكان يحسن بمتز أن لا يسوقها فى مجال الحديث عن التولع بالغلمان ونصب الشباك لهم وأين ؟ فى المساجد الطاهرة ، فالمفجع إنما أراد إلى أن يدفع سامعيه إلى الفكاهة والضحك العريض . ولم يطل به المقام فى مكان أستاذه ابن دريد يُمْلى ويحاضر الطلاب ، فما هى إلا ست سنوات بعد وفاة ابن دريد حتى لبَّى نداء ربه سنة ٣٢٧ للهجرة .

٣

شعراء الثورات السياسية

لم تكن ثورات الشيعة بزعامة العلويين وحدها هى التى أقضَّت مضاجع الخلفاء فى هذا العصر ، فقد اشتعلت بجانبها ثورات أخرى ، كان بعضها يزيف لنفسه شعاراً علويًّا حتى يجمع العامة فى صفوفه وتحت لوائه . وكان من زعماء هذه الثورات من ينظم الشعر ، فهو ثائر من جهة ، وهو شاعر من جهة ثانية . ويهمنا الوقوف

(١) انظر الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٢ / ١٣١

على هؤلاء الشعراء الثوار ومن كان يُعينهم أحيانًا بأشعاره من أنصارهم . ونلاحظ أن هؤلاء الشعراء من الأنصار لم تهتم بهم كتب التاريخ ، فهى دائمًا تسوق ما قيل فى انتصارات العباسيين على الثوار ولا تُعْنَى أى عناية بما قاله أصحاب هؤلاء الثوار فى قليل ولا كثير .

ومن أوائل من ثاروا فى العصر محمد بن البعيث لعهد المتوكل سنة ٢٣٤ وكان يحسن الشعر ، وسنعرض له فى موضع آخر . وما نصل إلى رمضان لسنة ٢٥٥ للهجرة حتى يُشْعل فارسى ثورة الزنج بالبصرة متزعمًا لها ، وفصَّلنا فى الفصل الأول القول فى هذه الثورة وكيف دوَّخت الدولة العباسية وعرَّضتها لكارثة عظيمة ، إذ استطاع أن يستثير الزنج ويجعلهم يستشعرون سُخْطًا هائلاً على كبار الملاَّك الإقطاعيين الذين كانوا يُسخرونهم فى كَسْح أرض البصرة وزرعها دون أى رحمة أو شفقة وبأجور زهيدة لا تكاد تحقق لهم غذاء ولا كساء . وتجمَّع حوله الزنج واستحالوا إلى جيش لَجِب اجْتَاحَ جنوبىَّ العراق وكاد يجتاح العراق كله فى بعض الأوقات لولا أن تجرد لهم وزعيمهم الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وكان بطلا مغواراً لا يُشَقُّ غباره ، وكانت الجيوش توالت فى حرب هذا الثائر وأصحابه ، وكان يمزقها شر ممزق ، حتى تولى قيادتها الموفق ، فاستحالت الهزيمة نصراً ، ولكن أى نصر ؟ لقد كان نصراً بطيئًا ، إذ كانت تقف بينه وبين الثوار مستنقعات البصرة ، وظل يأخذها منهم قطعة قطعة .

ومن المحقق أن هذه الثورة أقدم ثورة عرفها العرب فى المطالبة بالحرية ونقض الاسترقاق وتحقيق العدل الاجتماعى ، ولكن زعيمها لم يمض بها فى السعى إلى هذه الغايات كما كان يَعِدُ فى أول ثورته ، فقد استباح فى حروبه استرقاق الأحرار ، وكأنما ألغى ردَّه الحرية على الزنج بفرضه الاسترقاقَ على غيرهم ، فانعكست صورة الاسترقاق ، ولكنها ظلت كما هى وظلت طبقات من الناس تسترقُّ طبقات أخرى . وكان قد رأى إنجاحًا لثورته أن يُضْفى عليها مسحة دينية ، كما مر بنا فى الفصل الأول ، فأشاع فى الناس أن اسمه على بن محمد وأنه من سلالة زيد بن على بن الحسين ، حتى يؤمنوا بأنه صاحب حق شرعى فى الخلافة وأن من حقه الثورة على العباسيين ، بل من حقه عليهم أن ينصروه ويؤازروه . وانضم إليه كثيرون من

الأحرار وأعراب البوادى بجانب من انضموا إليه من الزنج وعبيد العراق ، ولكن ثورته باءت — بعد أربعة عشر عاماً من المعارك العنيفة — بالإخفاق الذريع .

ولا نريد أن نقف عند هذه الثورة الآن وما كان من صاحبها الذى ظلت ثورته أربعة عشر عاماً أو تزيد ، والذى كان يُسْرف فى القتل وسفك الدماء ، حتى قالوا إنه قتل فى البصرة فى يوم واحد من غاراته الكثيرة ثلاثمائة ألف ، وإنه كان يُنْهب أصحابه الأموال ويَحْرق الدور والقصور . كل ذلك لانريد أن نقف عنده ، ولا عند ما يقال من أنه كان دائماً يخطب فى أنصاره[1] . إنما نريد أن نقف عند ما بقى لنا من بعض أشعاره[2] . يقول المرزبانى : « تُرْوى له أشعار كثيرة فى البسالة والفتك » ، ويذكر أن ابن دريد كان يؤكد أنها من نظمه وأنها قُرئت عليه أمامه ، فشهد بأنها له ، ولم يُنْكرها ، وكأن من معاصريه مَنْ كان يشكُّ فى أنه شاعر يحسن صنع الشعر ونظمه ، مما جعل ابن دريد يؤدى الشهادة السالفة . وكان من قرية تسمى وَرْزَنِين بإيران ، وكأنه تلقَّن فيها من الآداب العربية ما جعله يحسن الخطابة والشعر جميعاً ، وله يخاطب بنى العباس :

بَنِى عَمِّنا لا توقدوا نارَ فتنةٍ ... بَطِيءٍ على مَرِّ الليالى خمودُها
بنى عمنا إنا وأنتم أنامــلٌ ... تضمَّنها من رَاحَتَيْها عقودُها
بنى عمنا ولَّيْتُم التُّرْك أمرنا ... بديئاً وأعقاباً ونحن شهودُها
فأُقسم لاذُقْتُ القَراحَ — وإنْ أَذُقْ ... فبُلْغَةَ عَيْش — أو يُبَارَ عميدُها[3]

وهو يسوق كلامه إلى العباسيين كأنه حقاً ابن عمهم على بن أبى طالب أو حفيده ، ويزعم أنهم يوقدون ضده نار فتنة ، وكان ينبغى أن يستسلموا له فليسوا جميعاً إلا أنامل يد هاشمية واحدة . ويلومهم أن أسلموا قيادة الدولة للأتراك ، وأنه سيجاهدهم جهاداً مريراً . وكان يكثر من تصوير ما يجرى فى قصورهم من خمر ومجون ينبغى أن تبرأ منه

---

(١) الطبرى ٩ / ٤١٤ وما بعدها .
(٢) انظر فى أشعار صاحب الزنج معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٤٨ وذيل زهر الآداب ص ١٥٥ وما بعدها .
(٣) الماء القراح : البارد العذب . بلغة العيش : أقل ما يكفى . يبار : يهلك .

قصور الخلافة وأن تكون قصور نسك وطهارة لا قصور إثم وعصيان ، وفى ذلك يقول :

لَهْفَ نَفْسى على قصورٍ ببغدا ... دَ وما قد حوتْه من كلِّ عاصِ
وخمورٍ هناك تُشْرَبُ جَهْرًا ... ورجالٍ على المعاصى حِراصِ
لستُ بابن الفواطم الزُّهر إن لم ... أُقْحِم الخيلَ بين تلك العِراصِ

وهو يسجل على العباسيين انصرافهم عن حياة الدين والعبادة إلى حياة اللهو والمجون والعبث واقتراف الآثام ، حتى يستثير الناس معه . وينسب نفسه إلى فاطمة الزهراء ، بل إلى الفواطم الزهر ، حتى يستهوى القلوب. ويعلن أنه سيجاهد العباسيين ويستمر فى جهاده حتى تسقط بغداد . وظل ثابتًا فى جهاده مخلصًا له فى أحلك الظروف ، حتى بعد أن فقد الأمل ، فإنه لم يستسلم للموفق بعد أن استسلمت عامة أنصاره ، ولا رضى الأمان حين عرضه عليه كما رضيه أكثر جنده والبقية الباقية منهم ، بل ظلَّ يقاتل حتى سُفِكَ دمه أمام منزله وهو ينشد :

عليك سلامُ الله يا خير منزلٍ ... خرجنا وخَلَّفناه غير ذميمِ

وتلقانا بعد ثورة صاحب الزنج ثورة بكر بن عبد العزيز بن أبى دُلَف فى الكرج وكان شاعراً ، وسنعرض له عما قريب . ونشبت ثورة القرامطة ، وكان دعاتها يَصِلونها بالدعوة الإسماعيلية الشيعية ، كما مرَّ بنا فى الفصل الأول . وكان غير ثائر من هؤلاء الدعاة يصِلُ نفسه مباشرة بمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، مزيفًا لذلك سلسلة نسب كاذبة ، على نحو ما صنع صاحب الزنج لنفسه نسبًا يصله بزيد بن على زين العابدين . وكان داعيتهم الأول قرمط مكوّن الفرقة قد التقى فى سواد الكوفة بأحد دعاة الحركة الإسماعيلية ، فانضم إليه ، وأخذ فى تنظيم حركته القرمطية واضعًا لها من المبادئ الاشتراكية العادلة ما استهوى به قلوب العامة ، فتبعه خلق كثير أخذ يُغير بهم على سواد الكوفة . وما نصل إلى سنة ٢٨٩ حتى نجده يختفى فى ظروف غامضة ، ويتولى زعامة حركته زكْرَوَيْه الدَّندانى ، ويرى — كما مرَّ بنا — الدولة بالمرصاد له ولجماعته ، فيرسل بأبنائه : يحيى والحسين ومحمد إلى قبيلة كلب ببادية السماوة بين العراق والشام ، لعلهم يستجيبون إلى دعوتهم ، ويتبعهم كثيرون ، ويبايعون أكبرهم يحيى بن زكرويه الذى زعم لهم أنه من سلالة

محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق!، وتسمّى لهم باسم أبي عبد الله على بن محمد ، وقيل بل تسمى باسم محمد ، وتكهّن لهم مدعيا أنه يُوحَى إليه ، وكشف لهم عن عَضُد له ناقصة وزعم أنها آيته أو معجزته، كما زعم أن ناقته التى يركبها مأمورة وأنهم إذا ساروا وراءها فى لقاء أى عدو جاءهم نصر الله والفتح المبين . ومضى بجموعه فى سنة ٢٩٠ يهاجم المدن السورية ويَعيثُ فى الأرض فساداً . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية ، ولقيه أحد قوادها فتغلب عليه ومضى إلى الرقة يقتل ويسفك الدماء ، وَدَحَرَ جيشاً للعباسيين ، وعاد يحاصر دمشق ، غير أنه قُتل على أبوابها . وكان شاعراً ، ترجم له المرزبانى فى معجمه[1] . ونراه فى بعض أشعاره على شاكلة صاحب الزنج ينسب نفسه إلى الفواطم من بنى هاشم ، يقول :

أنا ابنُ الفواطم من هاشمٍ وخيرُ سُلالةِ ذا العـالَم
وطئتُ الشامَ برغم الأَنامِ كوَطءِ الحِمام بنى آدم

وهى نسبة كاذبة . ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد بثورته نصرة العلويين ولا كان فيها متشيعاً لهم ، إنما كان متشيعاً لنفسه يريد أن يصل إلى الملك والسلطان ، ولذلك فصلناه مثل صاحب الزنج — على نحو ما مرّ بنا — عن العلويين وثوراتهم ودعواتهم السياسية ،وله أبيات يذكر فيها النجوم والكواكب : المريخ والعيُّوق وسعد الذابحين ملوّحاً للعامة التى تتبعه بأن علم التنجيم قد كشف له عن نصر عظيم يلقاه فى الموصل ومدينة الرَّحْبة التى بناها طوق بن مالك ومدينة الرافقة ، بل إنه سيدمر بغداد تدميراً وينهب كل ما فى قصورها من أموال يقول :

تقاربت النجومُ وحان أمرٌ قرانٌ قد دَنا منه النذيرُ
فمرِّيخُ الذبائح مستهلٌّ قَوىٌّ ما لِوَقْدَتِهِ فتورُ
وعَيُّوقُ الحروب له احمرارٌ وسَعْدُ الذابحين له بدورُ
فبَشِّرْ رَحْبَتَىْ طَوْقٍ بيومٍ من الأيام ليس له نظيرُ
ورافقةُ الضلالةِ ليس يُغْنى إذا ما جئتها بابٌ وسورُ

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٥٣ .

وبغدادُ فليس بها اعتياصٌ على أمرى وليس لها نكيرُ
أُصبِّحها فأَتركها هَشيماً وأَحْوِى ما حوتْه بها القصُور

ومن ثوار القرامطة الشعراء أبو طاهر الجَنَّابى صاحب الأحساء والبحرين، وكان أبوه أبو سعيد من أنصار قَرْمط، وكلفه بنشر الدعوة فى جنوبى إيران، وأخفقت مساعيه، وعاد إلى قرمط، فأرسله إلى البحرين والأحساء، وسرعان ما استجابت له قبيلة عبد القيس. ودخلت المنطقة فى سلطانه منذ سنة ٢٨٦ للهجرة، وقتله غلام صقلبى فى سنة ٣٠١ فخلفه ابنه أبو طاهر، وعظم أمره، إذ واقع عساكر الخليفة المقتدِر مراراً كما مرَّ بنا فى الفصل الأول وفتك بغير جيش من جيوشه، واتسع ملكه فى شرقى الجزيرة العربية، وكثر أتباعه وجنوده، ونال ما لم ينله قرمطى قبله. وكان يزعم أنه داعية عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى الإسماعيلى، وكان شأنه قد أخذ يعظم فى إفريقية، ولم يكن يدعو له حقيقة، بل كان يتخذه ستاراً لخروجه على الخلافة العباسية. وكان كثيراً ما يُغير على البصرة وينكِّل بأهلها، ويسفك دماءهم، ويحرق دورهم كما يحرق المساجد. وكثيراً ما كان يُغير على قوافل الحجاج يفتك ويقتل وينهب، وجيوشه تَغْدُو وتروح إلى عاصمته «هجر» محمَّلة بالأموال، فكان طبيعيًّا أن يمتدّ به طمعه وطموحه إلى أن يستولى على بغداد، بل إلى أن يستولى على العالم الإسلامى كله وبلغ به تهويله على العامة أن كان يزعم لها أنه سيظلّ حيًّا حتى ينزل عيسى من السماء بأخرة، وفى ذلك كله يقول من قصيدة طويلة مهدداً متوعداً (١):

فمَنْ مبلغٌ أَهلَ العراق رسالةً بأَنى أنا المرهوبُ فى البَدْوِ والحضَرْ
فيا ويلهم من وقعةٍ بعد وقعـةٍ يُساقون سَوْقَ الشَّاءِ للذَّبْحِ والبقَرْ
سأَصرفُ خيلى نحو مصرَ وَبَرْقةٍ إلى قَيْرَوانِ التُّرْكِ والرُّومِ والخَزَرْ
أَكيلُهمُ بالسيف حتى أُبِيدَهم فلا أُبْقِ منهم نَسْلَ أُنْثَى ولا ذَكَرْ
أَعمَّر حتى يأْتِ عيسى بن مريم فيحمدَ آثارى وأَرضى بما أَمَرْ

وعزم فى سنة ٣١٥ على غزو بغداد، فخرج إليها فى ألف فارس وخمسة

(١) النجوم الزاهرة ص ٣/٢٢٥

آلاف راجل ، فجهّز المقتدر لحربه جيشاً بقيادة يوسف بن أبى السّاج ، والتقى الجيشان ، ودارت الدوائر على ابن أبى الساج وجيشه ، وأُخذ أسيراً ، وأسرع مؤنس بجيش كثيف فى نحو أربعين ألفاً ، وانضم إليه الحمدانيون وغيرهم من عرب العراق والموصل ، والتقى بأبى طاهر وجيشه عند الأنبار ، غير أن أبا طاهر انصرف راجعاً إلى بلاده ، ولم يواقعه مؤنس مع ما اشتهر به من شدة بأسه ، وكأنما خشى على نفسه مغبّة الحرب ، مما جعل أبا طاهر يرسل له بالأبيات التالية ساخراً منه سخرية شديدة [1] :

قُولُوا لمُؤْنسكم بالرَّاح كُنْ أَنِساً ... واستتبع الراحَ سُرْنايا ومزمارا

وقد تمثلتُ عن شوقٍ تقاذف بى ... بيتاً من الشعر للماضين قد سارا

نزوركمْ لم نؤاخذكم بجفوتكم ... إن الكريم إذا لم يُسْتَزَرْ زارا

وهو يهزأ به وبشجاعته التى عُرف بها ، ويقول له إنك لست من أهل الحرب والبأس ، وإنما أنت من أهل الكاس والطاس وآلات الطرب من السرْنای وغير السرنای ، ويستمر فى هزؤه ، فهو سيزوره ويزور بلاده للفتك به وبجنوده .

وتُطْغى أبا طاهر الجنّابى انتصاراتُه على جند الخلافة ، ويَغُرُّه بالله الغرور ، ويشتهر عنه أنه لا يصلى ولا يصوم ولا يعرف حدود الله . وما يوافى شهر ذى الحجة فى سنة ٣١٧ حتى ينقل غاراته على الحجّاج من قوافلهم إلى البيت الحرام ، وإذا السيوف تنوشهم وتسيل دماؤهم أنهاراً يوم التَّرْوية ، وهم يهللون لربهم ويُلَبُّون ، وهو وأنصاره يَنْحرون فيهم ، كأنهم كباشٌ أُعِدَّتْ للذبح ، دون أى شفقة أو رحمة . ولم يكتفوا بمن ذبحوهم فى فجاج مكة ، فقد دخلوا المسجد الحرام ينحرون ويذبحون والناس يتعلقون بأستار الكعبة وهم يمزقونها ويمزقون جلودهم بسيوفهم ، ولا شفيع لهم ولا نصير من هذا الشيطان الرجيم . وبلغ من سفهه وخُرقه أن أمر بطرح القتلى فى بئر زمزم ، واقتلع الحجر الأسود من موضعه ، وأخذه معه إلى هجر وظل بها حتى سنة ٣٣٩ إذ أعاده القرامطة إلى مكة خوفاً من الخليفة المطيع وخَشْية من بأسه وبأس البويهيين . وجرَّد أبو طاهر الكعبة من كل ما كان بها من تحف

(١) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٥٥ .

أهداها الخلفاء على مرّ السنين . وروى المؤرخون أنه كان فى أثناء هذا العمل الوحشى الفظيع يترنّم بأشعار له مبتهجاً ؛ وكأنما كان يشفى غليل نفسه من الإسلام وصاحبه وأهله بما ارتكبه من هذه الخطايا الموبقات ، وبما كان يُنْشده من هذه الأشعار التى يحادّ بها الله ورسوله من مثل قوله[1] :

ولو كان هذا البَيْتُ بيتاً لربِّنا ... لصبَّ علينا النارَ من فوقنا صَبَّا
لأنا حَجَجْنا حِجَّةً جاهليَّـةً ... محلَّلةً لم تبق شرقاً ولا غرْبا
ولكنَّ ربَّ العرش جَلَّ جلالُه ... ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حُجْبَا

وكأنه بذلك يعلن كفره ، صريحاً غير موار ، بفريضة الحج إلى بيت الله ، التى تُعَدّ ركناً أساسيًّا من أركان الإسلام . وبذلك يتضح أن أبا طاهر لم يكن ثائراً عنيفا فحسب مثله مثل يحيى بن زكرويه وصاحب الزنج ، بل إنه يتقدمهما خطوات فى الثورة الدامية والعنف والانفصال عن العلويين ، إذ خلع الإسلام كله من عنقه ومضى يحارب أهله ويسيل دماءهم ويذبحهم ذبحاً حيث لا يحل صيد الحيوانات ولا الطيور ، غير ما انتهكه من حرمات بيت الله المقدس انتهاكاً ليس له سابقة ولا لاحقة فى التاريخ . ولعل من الخير أن نبسط القول قليلا فى شاعرين ثارا على الخلافة العباسية فى القرن الثالث الهجرى ، وهما محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبى دُلَف .

محمد[2] بن البعيث

من فتيان بنى أسد نزلت عشيرته فى أذْرَبِيجان ، واشتهر أبوه بأنه كان من الفُتّاك الصعاليك ، واستطاع محمد أن يمتلك فى تلك الديار قلعتين : قلعة تسمى شاهى وأخرى تسمى بكدُر ، وكانت شاهى أشد مناعة فكان يقيم فيها كثيراً . واشتهر أمره فى عصر المعتصم وحروب بابك ، فإنه كان يحاول أن يكون محايداً بين الطرفين المتخاصمين ، فإذا نزلت سَرايا أحدهما أضافها وأحسن الضيافة ، وهو فى أثناء ذلك يراوغ ، وقد ينقل للجيش العباسى وقواده أخبار بابك ، وقد ينقل إلى بابك

---

(١) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٦٢ .
(٢) انظر فى ثورة محمد بن البعيث وأخباره الطبرى ٩ / ٢٥ ، ٢٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ومروج الذهب ٤ / ٤١ ومعجم الشعراء ص ٣٨٥ .

أخبار الجيش العباسى . وكان هواه مع العباسيين ، غير أن وقوفه متفرجًا دون أن يُقْحم نفسه فى تلك الحروب وينصر العباسيين جعل إسحق بن إبراهيم المصعبى أحد قواد المعتصم يقبض عليه ويُلْقَى به فى غياهب السجون . ويتوسط له بعض القواد ، فيُفْرج عنه ، على ألا يبرح سامرَّاء حتى إذا كانت سنة ٢٣٤ لعصر المتوكل هرب إلى دياره وحصونه فيها ، واختار حصن مَرَنْد ، فجمع فيه عُدَده وأسلحته وأنصاره وزادهم ، ورمَّ ما كان وَهَى من سورها ، وكان فى داخلها وخارجها بساتين ، تدور من حولها أشجار كثيرة . ووجَّه إليه المتوكل بعض الجيوش فلم تستطع أن تصل إليه ، ثم وجَّه إليه بُغا الشرابى ، فزحف إلى الحصن وقطع ما حوله من الشجر نحواً من مائة ألف شجرة ، ونصب عليه المجانيق ، ويئس ابن البعيث من مطاولة الحصار ، ففرَّ على وجهه وهو ينشد :

كم قد قضيتُ أمورًا كان أهملها ... غيرى وقد أخذ الإبْلاسُ بالكَظم[1]

لا تعذليَنى فيما ليس ينفعنى ... إليكِ عنى جَرَى المقدارُ بالقَلَم

سأتلف المال فى عُسْرٍ وفى يُسُرٍ ... إن الجواد الذى يعطى على العدمِ

وتبعه نَفَرٌ من الجيش العباسى ، فلحقوه ، وهو راكب دابة متقلد سيفًا يريد أن يصير إلى نهر عليه رَحًى ليستخفى فى الرَّحى ، وأخذوه أسيراً ذليلا ، وانتهب الجند داره ودور أصحابه وبعض دور المدينة ، ونادى مناد بالامتناع عن النهب . وأُتِىَ بابن البعيث إلى المتوكل ، فأمر بضرب عنقه ، فطُرح على نِطْع ، وجاء السيَّافون فلوَّحوا له بسيوفهم ، وقال له المتوكل حانقًا غاضبًا : ما دعا يا محمد إلى ما صنعت ؟ فأجابه : الشقْوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإنَّ لى فيك لظنَّين أسبقهما إلى قلبى أولاهما بك ، وهو العفو ، ثم اندفع ينشده :

أَبَى الناسُ إلا أنك اليوم قاتلى ... إمامَ الهدى والصَّفْحُ بالحُرِّ أَجْمَلُ

وهل أنا إلا جُبْلَةٌ من خطيئةٍ ... وعفوُك من نور النبوة يُجْبلُ[2]

تضاءَل ذنبى عند عفوك قِلَّةً ... فَمُنَّ بعَفْوٍ منك والعَفْو أفضلُ

فإنك خير السابقين إلى العُلا ... ولا شك أنْ خَيْرُ الفَعالين تَفْعَلُ

(١) الكظم : مخرج النفس من الحلق . الإبلاس : انقطاع الحجة .

(٢) الجبلة : الخلقة والطبيعة .

فقال المتوكل : أفعل خيرهما وأمُنُّ عليك ، ارجعْ إلى منزلك ، وخفَّف عنه الحكم من الإعدام إلى الحبس وظل فيه حتى وافاه الموت . وفى الطبرى أنه كما كان ينظم بالعربية بعض أشعار له كان ينظم بالفارسية أشعاراً أخرى . وكان جواداً ممدَّحًا طالما قصده الشعراء بمدحهم ، وأجزل لهم فى عطائه ، وممن ذكر منهم المرزبانى فى معجمه يحيى [1] بن أحمد من أهل مدينة الرَّحْبة فى الموصل ، وفيه يقول : « كان فى ناحية محمد بن البعيث ، ومدحه مدحًا كثيراً » منه قصيدة أولها :

لا زال محسودًا على أفعـــالهِ وحَسوده فى الناس غيرُ محسَّدِ
شطراه بين معاقبٍ أَو غافرٍ أَو عائدٍ متفضِّلٍ أَو مُبْتَدِى
شَفْعاً ووِتْرًا كلّ ذاك فَعاله كالدهر إلا أنه لا يعتدِى
فالناسُ تحت لوائه من راغبٍ أَو راهبٍ أَو رائحٍ أَو مُغْتدِى

وكان ابن البعيث يستخدم يحيى فى الدعاية له ، وهو يصوره فارسًا رائحًا غاديًا على أعدائه ، والناس بين راهب من بطشه وراغب فى كرمه الفياض ، وتارة يعاقب أعداءه عقابًا أليمًا ، وتارة يعفو عفواً رحيمًا ، ويدعو له أن يظل محسوداً متسنمًا لذروة المجد الرفيعة . ومن قوله فيه :

متى أَلْقَ منْ آل البَعِيث محمَّدًا أَحلُّ رياضاً للعُلا بمحمَّدِ
وتضحك أم البِشْرِ عنى بنَيْلِهِ فأَرجـــع محسودًا بِنَيْلٍ محسَّدِ

ويبدو أن ابن البعيث كان شخصية ممتازة ، فهو جواد ، وهو شجاع من أهل البأس والفتوة ، وهو أديب يحسن العربية والفارسية . وبلغ من ثبات جأشه وجنانه أن أنشد المتوكل الأبيات السالفة وهو على النطْع والسَّياف شاهر سيفه يريد أن ينقضَّ عليه وأن يحزّ رأسه ويُزْهق روحه ، وشَرَرُ الغضب يتطاير من عينى المتوكل وقد انتفخت أوداجه . وكأن ذلك كله لم يملأ نفسه خوفًا ولا هلعًا ، فظل رابط الجأش مجتمع القلب ، لا تخونه الكلمة فى اللحظة الحرجة ، بل لا يخونه البيت

---

(١) انظر فى ترجمته وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٩١ .

الذى يستلُّ الغضب من نفس المتوكل . وقد بلغ منه مبلغًا خطيراً ، حتى أوشك أن يقضى عليه قضاء مبرمًا . وهى قدرة نفسية كانت تمتزج بقدرته البيانية .

بكر[1] بن عبد العزيز بن أبى دلف

حفيد أبى دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلى الشيبانى البطل المغوار الذى أبلى بلاء عظيمًا فى حروب بابك لعهد المأمون والمعتصم ، وكان هرون الرشيد ولاَّه — وهو حَدَث السنِّ — أعمال الجبل فى إيران ، ولم يزل عليها إلى أن تُوُفِّى سنة خمس وعشرين ومائتين . وكان أديبًا شاعراً وله مقطوعات تتردَّد فى كتب الأدب ، وهو ممدوح أبى تمام وعلى بن جَبَلة الذى قال فيه :

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ بين باديه ومحتَضَرِهْ
فإذا وَلَّى أبو دُلَفٍ وَلَّت الدنيا على أثره

وقد تولَّى إقليم الجبل ابنه عبد[2] العزيز وكان شاعراً ، وشجاعًا باسلا ، وعزله عنه المعتز وولى عليه موسى بن بغا ، فثارت ثائرة عبد العزيز وفَرَّ إلى قلعة له ولعشيرته فى الكَرَج بين همذان وأصفهان ، وظل ينازل الدولة العباسية . ونراه فى سنة ٢٥٤ يَجْبى همذان . ويخلفه ابنه أحمد ، فيتولى زعامة أسرته ويمدّ سلطانه إلى أصبهان ويتوفى سنة ٢٨٠ فيتنازع الرياسة بعده أخواه عمر وبكر ، ويتمّ لعمر القيام بالأمر ، ولا يرسل إليه الخليفة المعتضد بالولاية ، حتى لا يثور بكر ، غير أنه عاد فولَّى فى سنة ٢٨٣ عيسى النُّوشَرِىّ على أصبهان ، وغضب بكر ومن كانوا ينضوون تحت لوائه من الأعراب ، فولَّى وجهه معهم نحو الأهواز ، وخرج فى طلبه القائد التركى وصيف حتى بلغ حدود فارس . ولحقه ، ولكنه لم يحاول أن يبادره بالحرب ، وباتا كلٌّ واحد منهما قريب من صاحبه ، وارتحل بكر ليلا ولم يتبعْه وصيف ، وعاد بكر إلى أصبهان ورجع وصيف إلى بغداد . وكتب المعتضد إلى بدر غلامه المعروف باسم بدر المعتضدى يأمره بطلب بكر بن عبد العزيز وعَرَبِه .

وكان بكر شاعراً انحدر إليه الشعر من أبيه وجده ، وله ديوان صغير نُشر فى

---

(١) انظر فى بكر وأشعاره ديوانه وتاريخ الطبرى ١٠ / ٤٧ ، ٥١ ، ٦٣

(٢) انظر فى عبد العزيز وولايته على الجبل الطبرى ٩ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ .

دهلى باسم شعر بكر بن عبد العزيز وهو يتغنى فى أشعاره بفتوته وفروسيته ، وله ميمية طريفة نظمها حين سمع بأن المعتضد أمر بدراً غلامه أن يتعقبه، وفيها يتوعده ويتهدده بمثل قوله :

أَلْقَى الأَحِبَّةُ بالعراقِ عِصِيَّهُمْ ... وبقيت نُصْبَ حوادث الأَيامِ
وتشعَّب العرب الذين تصدَّعوا ... فذببتُ عن أحسابهم بحُسامى
فلأَقرعَنَّ صَفَاة دَهْرٍ نابَهم ... قَرْعًا يهدُّ رواسىَ الأَعلامِ
ولأَتركنَّ الواردين حياضَهم ... بقرارةٍ لمواطئ الأَقدامِ
يا بَدْرُ إنك لو شهدتَ مواقفى ... والموت يلحظ والصِّفاحُ دوامى
لذممتَ رأْيك فى إضاعة حُرْمَتِى ... ولضاقَ ذَرْعُك فى اطِّراح ذِمامى
حرَّكْتَنى بعد السكون وإنما ... حَرَّكتَ من حِصْنِى جبالَ تِهام

وواضح من حديثه فى مطالع هذه الأبيات أنه يأسى للعرب فى عصره ، فقد تشعَّبوا وتَفرَّقوا شِيَعًا وطرائق شتى ، فعضَّهم الدهر بنابه وأصبحت حياضهم مباحة يَرِدُها الأعاجم وغير الأعاجم ، وها هو وحده يقف للدفاع عن عَرينهم ، ولا معين له غير عزيمته الماضية وسيوفه القاطعة . وإنه ليتهدد الدهر أن ينزل به أشد النكال كما يتهدد من استباحوا حِمىَ العرب والعروبة بالذل والهوان حتى ليصبحون موطئًا للأقدام، ويتحول إلى بدر المعتضدى واصفًا له مواقفه البطولية حين تُسَلّ السيوف وتسدَّد الرماح ويلتقم الموت الأبطال ، حتى يستشعر الندم على تضييعه لذمامه وتحريكه للحرب المبيرة بعد سكونها . ويبدو أن بدراً رأى أن يَكِلَ أمره إلى غيره ، فكلَّف عيسى النَّوشَرِىّ بمهاجمته ، وصَدَع لتكليفه ، ولكنه لم ينجح سريعًا فى مهمته ، واضطر فى بعض المواقف أن ينسحب بجيشه ، فقال بكر يذكر فراره من بين يديه ، ويتهدد بدراً صاحبه ، من قصيدة طويلة :

ليس كالسيف مؤنسٌ حين يَعْرُو ... حادثٌ معضلٌ ويَفْدح أَمْرُ
أَوقدوا الحرب بيننا فَاصْطَلَوْهَا ... ثم حاصوا فأَين منها المَفَرّ[1]
وبَغَوْا شَرَّنا فهذا أَوانٌ ... قد بدا شَرُّه ويتلوه شَرُّ

(١) حاصوا : حادوا .

قد رأى النُّوشَرِيُّ لما التقينا مَنْ إذا أُشْرِعَ الرماحُ يَفِرُّ
جاء فى قَسْطَلٍ لُهامٍ فَصُلْنَا صَوْلةً دونهـا الكماةُ تَهِرّ
غرَّ بَدْرًا حلمى وفَضْلُ أَناتى واحتمالى وذاك مما يَغُـرُّ

على أنه سرعان ما اضطُرَّ إلى الفرار أمام جيوش الخلافة سنة ٢٨٤ إذ التقى به النوشرى فى حدود أصفهان ، فقتل رجاله واستباح عسكره . وأفلت فى نفر يسير ، وغادر إقليم الجبل متجهًا إلى محمد بن زيد العلوى صاحب طبرستان ، فأكرم وفادته عليه ، وقرَّبه منه ، وولاه على إقليم رويان ، غير أنه مات مسمومًا فى طريقه إليها لسنة ٢٨٥ .

٤

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا نبالغ إذا قلنا إن جميع وزراء العصر وأكثر ولاته وقواده داروا على ألسنة الشعراء يمدحونهم طلبًا للنوال ، إذ كانت بأيديهم أموال الدولة ، وكانوا ينثرونها نَشْراً على الدعاية لهم ، ولم يكن للدعاية حينئذ لسانٌ سوى الشعر ، فالوزير وكذلك الوالى والقائد حين يُطْريه شاعر ويثنى عليه يطير اسمه فى الناس ، ولذلك كان كثيرون يَتَجَمَّعُون الشعراء من حولهم ، لكى يعدّدوا مناقبهم ، ويصوّروا كفاءتهم وأنهم من الصفوة المختارة للأمة . وكان من بينهم شعراء وأدباء يقدرون الشعر وأصحابه ، ويرفعون منزلتهم عالية . وكان فى مقدمتهم لعصر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان وكان كثيرون يكادون يقصرون أنفسهم على مديحه وما يصلهم من نواله[1] ، وهو من ممدوحى البحترى كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان شاعراً مرهف الذوق ، وله البيت المشهور[2] :

ليس يُسْتَحْسَنُ فى شَرْعِ الهَوَى عاشقٌ يُحْسِنُ تأليفَ الحُجَجْ

(١) انظر مثلا ترجمة ابن أبى فنن الشاعر فى تاريخ بغداد ٤ / ٢٠٢ .
(٢) معجم الشعراء ص ١٩١ .

ومثله من وزراء المتوكل فى كثرة مادحيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وهو أيضًا ، من ممدوحى البحترى ، ومن مادحيه [١] محمد بن غالب الأصبهانى والقنبرىّ [٢] ، وفيه يقول أبو هِفّان يوم النَّيْروز وفيه تقدّم هدايا كثيرة [٣] :

إذا نحن مدحنـاك رَعَيْنـا حُرْمة المجـدِ
وما استطرفتُ للإهـدا ءِ إلا طُرَفَ الحَمْـدِ

وكان يَزِيدُ للمنتصر أحمد بن الخصيب ولم تكن له رصانة صاحبيه ، بل كان فيه حمق كثير ، ومع ذلك مدحه غير شاعر طلبا للربح والنوال ، من مثل قول محمد بن غياث الكاتب فيه [٤] :

سَمَّوْهُ أحمد فالإسلامُ يحمدُه والدهر كاسم أبيه ممرعٌ خَصِبُ
فلا فضائل إلا منه أوَّلُها ولا مواهبَ إلا دون ما يَهَبُ

ووزر للمستعين أبو محمد صالح بن يزداد ، ويردّد البحترى فى ديوانه مدحه ، وتلقانا مدائح فى وزراء المعتز مثل عيسى بن فرخانشاه وجعفر بن محمود الإسكافى . ويتولى وزارة المهتدى سليمان بن وهب ، وهو كما يقول الفخرى أحد كتّاب الدنيا وأحد عقلاء العالم ، وكان يُحْسن الشعر كما كان يحسن الكتابة ، وهو من ممدوحى البحترى ، وفى كتاب الأغانى ترجمة طويلة له ، وكثير من المدائح قُدّمت إليه من مثل قول هرون بن محمد البالسى [٥] :

أسفرَ الشَّرْقُ منك والغرب عن ضو ءٍ من العَدْل فاق ضوءَ البدورِ
أنشر الناسَ غيثُكم بعدما كا نوا رُفَاتاً من قبل يوم النُّشورِ [٦]

ووزر للمعتمد الحسن بن مَخْلد ، وكان ماهراً فى الكتابة ، وهو أيضًا من ممدوحى البحترى ، وكان مقصداً للشعراء . ويخلفه إسماعيل بن بلبل ، وهو كسابقه

---

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٩ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٢٣ .
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٩ .
(٤) معجم الشعراء ص ٣٧٨ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢٠ / ٦٧ ومعجم الشعراء ص ٤٦٤ .
(٦) أنشر : أحيى .

من ممدوحى البحترى ، ومدائح ابن الرومى وأهاجيه فيه مشهورة . ويُكثر البحترى وابن الرومى معًا من مديح وزير المعتمد صاعد وابنه العلاء وأخيه عبدون ، كما يكثر ابن الرومى من مديح عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد وابنه القاسم وزير المعتضد ، وفى ديوان ابن المعتز مدائح لهما مختلفة . وتدور أسماء وزراء المكتفى والمقتدر على ألسنة الشعراء ، وفى ابن الفرات وزير المقتدر يقول ابن العلاف[1] :

يتلقَّى النَّدَى بوجهٍ حَيِيٍّ وصدورَ القَنَا بوجهٍ وَقَاحِ
هكذا هكذا تكون المعـالى طُرُقُ الجِدِّ غير طُرْق المِزَاحِ

ولأبى بكر يحيى بن محمد الصولى أشعار ومدائح كثيرة فى وزراء العصر المتأخرين منذ عصر المقتدر ، وكان يدمج مديحهم فى مديح الخلفاء ، وقد يمدحهم مدحًا مستقلا من مثل قوله فى أبى عبد الله البَريدىّ وزير الخليفة المتقى[2] :

ما رأى الناسُ بالوزير البريد يِّ كذا اليومِ منه حُسْناً وفخرا
الذى يعشَق المكارم والمجـ ـدَ ويَشْرِى بالمال حمدًا وشكرا

ولعل أكثر الولاة مديحًا فى هذا العصر آل طاهر ، وفى مقدمتهم طاهر بن عبد الله بن طاهر والى خراسان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وأخواه عبيد الله وسليمان ، وعرضنا فيما أسلفنا مدائح البحترى وابن الرومى فيهم ، وممن كان منقطعًا إليهم أبو الأشعث المروزى[3] . وفى طاهر يقول مدرك بن غزوان الجعفرى من قصيدة[4] :

حَمَى طاهرٌ شرقَ البلاد بيُمْنِهِ وشعثُ النواصى لا تجفُّ لبودها[5]
يُنيخ بها أرض العدو ويبتنى مـآثر مَجْدٍ كان قِدْماً يَشِيدها

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٥٩ مقابلة على ص ٤٥٤ .
(٢) أخبار الراضى والمتقى بالله للصولى ص ٢٠٢ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٢ .
(٤) معجم الشعراء ص ٣٣٤ .
(٥) شعث النواصى : الخيل .

وممن كان يخصّ محمد بن عبد الله بن طاهر بمدائحه ابن أبى فَنَن ، وتصادف أن كانت له ضيعة بجوار إقطاع له ، وكان عامل الخراج والعشور يلحّ عليه فى طلب عُشوره وخراجه ، وربما آذاه ، فكتب إلى محمد يستغيث به من قصيدة طويلة[1] :

أَبنى حُسَينٍ إننى أَصبحتُ فى كنف الأَميرِ
ولنا معاشٌ فى قطيـ عتهِ على الماءِ النَّمِيرِ
لولا تردُّد عـاملٍ كالكلب فى يومٍ مطيرِ
فهل الأَميرُ بجوده من قبْح طلعته مجيرى

فلما قرأ محمد القصيدة وَقّع تحتها قد أجرناك أبا عبد الله وأمرنا لك باحتمال خراجك — وكان فى كل سنة ستة آلاف درهم — وحمل إليه ألف دينار ، وحلف عليه أن يقبلها . قال ابن أبى فنن : وصرت منذ هذا الحين أمدحه فى كل عام بقصيدة . ومن الولاة الذين طالما مدحهم الشعراء أبو جعفر أحمد بن محمد الطائى والى الكوفة . وهو من ممدوحى البحترى وابن الرومى ، ومثله إبراهيم بن المدبر الذى ولى الدواوين فى سامرّاء وبغداد وولى فى بعض السنوات البصرة فأغرق الشعراء بأمواله وأغرقوه بمدائحهم ، وهو ممدوح البحترى . ونرى شاعراً يكاد يخصه بمديحه وخاصة طوال مقامه فى البصرة ، وهو أبو شُرَاعَة شاعرها ، وكان لا يفارقه أيام تقلده لها ولا يمنعه حاجة ولا شفاعة يسألها إلا حققها له ، وفيه يقول[2] :

إنما لذّتاك فى المال شَتَّى صَوْنُك العِرْضَ وابتذال المالِ
ما نبالى إذا بقيتَ سليماً من تولَّتْ به صُرُوفُ الليالى

ومرّ بنا فى حديثنا عن البحترى أنه مدح أحمد بن طولون أمير مصر وابنه خمارويه وبعض قواده ، وأنه كان يمدح الهيثم بن عبد الله التغلبى والى الموصل وسيا الطويل والى حلب ورافع بن هرثمة والى الرى ، كما مدح بعض قواد الترك مثل وصيف الصغير وأذكوتكين . ولا بد أن شعراً كثيراً نُظم فى مديح القواد ، إذ تشير

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٦ والديارات ص ١٢٥ .
(٢) أغانى (طبع الساسى) ٢٠ / ٣٦ .

نصوص كثيرة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان من شعراء العسكر ، ومع ذلك نفتقد الشعر الذى يصوّر بطولة قواد العصر إلا ما نُظم فى الموفق وابنه المعتضد ، مما مرّت بنا الإشارة إليه عند البحترى وابن الرومى وابن المعتز . ويتعرض أبو بكر الصولى لبعض القواد فى عصره وخاصة فى مديحه لبعض الخلفاء من مثل محمد بن ياقوت القائد فى عصر الراضى ، وكان يتحكم فى شئون الدولة حتى أصبح ابن مقلة الوزير معه كالعارية وله فيهما ضادية طويلة [١] . وامتدح الشعراء كثيرين من الكتاب ورؤساء الدواوين — وأكثر من سميناهم من الوزراء عملوا فى الدواوين أولا — وممن كان ممدّحًا منهم آل ثوابة ، وقد توارثوا ديوان الرسائل منذ عصر المعتمد ، وكان من أكثرهم جوداً وكرمًا أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة ، وهو ممدوح البحترى ، وكان يمدحه شعراء كثيرون دَبَّجُوا فيه أشعاراً بديعة من مثل قول أبى هِفان [٢] :

الثوابىّ فتىً ليس له فى سوى السؤددِ والمجد وَطَرْ

وقوله [٣] :

نفسى فداءُ أبى العباس من رجـلٍ لم يَنْسنى قَطُّ فى نَأْىٍ ولا كَثَبِ
يقرى وبالرَّقة البيضاء منزلُه من بالعراقين من عُجْمٍ ومن عربِ

ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من شعراء هؤلاء الرؤساء ليتضح لنا مديحهم فى أضواء أكثر وضوحًا ، وهم أبو على البصير وأحمد بن أبى طاهر وابن دُرَيْد .

أبو على [٤] البصير

اسمه الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس ، أصل أسرته من الأنبار ، انتقلت إلى الكوفة فنزلت فى حى النَّخَع ، وهى أسرة فارسية الأصل . وكان أبو على ضريراً

(١) أخبار الراضى والمتقى للصولى ص ١٠.
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٠.
(٣) ديوان المعانى ١ / ٦٥.
(٤) انظر فى أخبار أبى على البصير وأشعاره كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٦٢ ، ٨٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٨٥ ونكت الهميان ص ٢٢٥ وزهر الآداب للحصرى ٣ / ٩٥ ، ١٩٣ والديارات ص ٨١ ، ٢٤٨ والفهرست ص ١٨٤

ولُقِّب البصير على العادة فى التفاؤل أو لذكائه وفطنته . وكان شيعيَّ الهوى على مذهب أهل بلدته الكوفة ، وأكبر الظن أنه كان إماميًّا يؤمن بالتقيَّة ، ولذلك لم ير بأسًا فى أن يترك الكوفة إلى بغداد وسامرَّاء . ونزل الأخيرة فى خلافة المعتصم ومدحه ومدح جماعة من قواده ، ولزم المتوكل والفتح بن خاقان يمدحهما وينال جوائزهما ، ولحق زمن المعتز وهنأه بالخلافة كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ولم يكن شاعراً فحسب ، بل كان أيضًا صاحب رسائل نثرية بارعة ، وفى الجزء الرابع من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت قطعة منها بديعة . ويقول المسعودى : « كان من أطبع الناس فى زمانه لا يزال يأتى بالبيت النادر والمثل السائر الذى لا يأتى به غيره ، وله فى الفضل حفيد الحسن بن سهل :

ملكٌ ندفع – ما نخشى – بهِ وبه – نُصْلح منا ما فَسَدْ

ينجز الناس إذا ما وعـدوا وإذا ما أنجز الفضلُ وعد

ودقة العبارة واضحة ، وواضح معها دقة الفكرة فى البيت الثانى ، فالفضل لا يزال يُؤدى وعوده وكلما أدَّى وعداً وعد ثانية ، فهو بحر من الجود لا ينقطع فَيْضه ، ومن طريف ماله فى الفتح بن خاقان قوله واصفًا بلاغته وشعره :

سمعنا بأشعار الملوك فكلُّها إذا عضَّ مَتْنيه الثِّقافُ تأوَّدا

سوى ما رأينا لامرىءِ القيس إننا نراه متى لم يشعر الفَتْحُ أوحدا

أقام زماناً يسمع القول صامتاً ونحسبه إن رام أكْدَى وأصْلدا[1]

فلما امتطاه راكباً ذلَّ صعبه وسار فأضحى قد أغار وأنْجدا

فأشعار الملوك قبل الفتح لا تثبت عند الثقاف والتمحيص ولا تستقيم بل تتأوَّد وتتثنى إلا ما كان من شعر امرئ القيس ، ولكن بشرط ألا ينظم الفتح وكأنه يعلو به على أبى الشعر العربى كله . وصوَّره يطيل إرهاف سمعه لمادحيه ، حتى ليظن الرائى أنه لا يحسن قول الشعر ولا نظمه ، حتى إذا رامه ونظمه ذاع فى طول البلاد وعرضها وفى حزْنها وسهولها ونجادها وأغوارها . ويقول الرواة إنه كان يتشيع وإن له فى ذلك أشعاراً ، ولم يصلنا من هذه الأشعار شىء ولعل كثيراً منها كان فى مدح آل البيت .

(١) أكدى وأصلد : أعطى قليلا .

وروى له الحصرى تهنئة بمولود ، نظن ظنًّا أنه قدمها لأحد أفراد البيت العلوى ، وفيها يقول :

أتانى البشير بأن قد رُزقتَ ... غلاماً فأبهجنى ما ذكَرْ
فعمَّرك اللهُ حتى ترا ... ه قد قارب الخَطْو منه الكِبَرْ
وحتى ترى حوله من بَنيه ... وإخوته وبَنيهم زُمَرْ
وأوزعك الله شكرَ العطاءِ ... فإن المزيدَ لعبدٍ شكر
وصَلَّى على السَّلف الصَّالحين منكم وبارك فيمن غَبَرْ

وكان يؤذى نفسه إيذاء شديداً أن يقدّم شعره أحيانًا لبعض الرؤساء أو بعض رجال الدولة فلا يأبه له أو لا يعطيه ما يستحقه ، وتصادف أن أفراداً مختلفين وقفوا منه هذا الموقف فى صور مختلفة ، فعزَّت عليه نفسه وكرامته ، وأنشأ يقول :

وإنى قد بلوتكمُ جميعـاً ... فما منكم على شكرى حريصُ
وأرخصتُ الثناءَ فعِفْتموه ... وربَّما غلا الشَّيْءُ الرخيص
فعفتُ نوالكم ورغبتُ عنه ... وشَرُّ الزاد ما عاف الخَصِيصُ (١)

ولعل شخصًا لم يؤذ نفسه وكبرياءه كما آذاه المعلَّى بن أيوب أحد قواد الجيش ، ولعل ذلك ما جعله يخصّه ببيتين كأنهما سَهْمان مُصْميان ، إذ يقول فيه :

لعمُر أبيك ، ما نُسب المعلَّى ... إلى كرمٍ وفى الدنيا كريمُ
ولكن البلاد إذا اقشعرَّتْ ... وصَوَّح نَبْتُها رُعِيَ الهَشيم (٢)

وكان يحسّ فقده لبصره إحساسًا عميقًا ، ولكن ذلك لم يَكْسر نفسه ولا أصابه بهوان ، إذ نراهُ يُدلُّ بأن غيره من المبصرين يستمدُّون علمهم من الكتب المخلَّدة ، أما علمه فدَفْتَرُهُ القلب وحِبْرُه السمع ، ويعتذر اعتذارات طريفة عن أنه لا يستطيع شيئًا إلا بغيره كما نرى فى مثل قوله :

---

(١) الخصيص : من الخصاصة ؛ وهى الفقر والاحتياج .

(٢) اقشعرت : أجدبت . وصوَّح : يبس .

لئن كان يهدينى الغلام لِوجْهتى ويقتادنى فى السير إذ أنا راكبُ
لقد يستضيء القومُ بى فى أمورهم ويخبو ضياءُ العين والرَّأىُ ثاقب

وهو كثير السخرية فى أشعاره . وله مداعبات ومجاوبات تدل على بديهة حاضرة حضوراً شديداً ، وكثير منها كان يدور بينه وبين أبى العيناء الضرير ويُرْوَى أنه قال له: إننى وُلدت وقت طلوع الشمس، فقال له توًّا: لذلك خرجت مُكْديًا (شحاذاً) لأنه وقت انتشار المساكين . وله غزل بارع من مثل قوله :

ألمتْ بنا يومَ الرَّحيل اختلاسَةً فأَضْرَم نيرانَ الهوى النَّظَرُ الخَلْسُ[1]
تأَبَّتْ قليلا وهْىَ تُرْعَدُ خِيفةً كما تتأَبَّى حين تعتدل الشَّمْسُ
فخاطبها صَمْتى بما أنا مضمرٌ وأَنبسْتُ حتى ليس يُسْمَعُ فى حِسُّ[2]
وولَّتْ كما وَلَّى الشبابُ لِطيَّةٍ طوت ـ دونها كَشْحاً على نفسها ـ النَّفْسُ

والقطعة بديعة وتدل على رهافة الحس ودقة الشعور وخصوبة التفكير ، وكأن البصير روى لنا قصة لامجرد خطرات فى الحب والوجد. وكان يشارك أحياناً فى الخمر والمجون واللهو ، وله دعابة نظمها وهو يريد الحج ، صوَّر فيها نفسه ألمَّ بالكوفة والأديرة القائمة حولها فى الحيرة ، فنازعته نفسه أن يشرب فى أحد الأديرة ويتزوَّد من خمرها ما يكفيه حتى العودة ، فقال لصاحبه : حُطَّ أثقالنا ، وسار الناس وأقاما ، يقول :

خرجنـــا نبتغى مكـ ـة حُجَّاجاً وزُوَّارا
فلما شارف الحِيـــرَ ـةَ حَادِى جَملى حارا
فقلت : احْطُطْ بها رَحْلِى ولا تحفِلْ بمن سارا
فقضَّينا لُبَاناتٍ لنا كانَتْ وأوطـــارا
وما ظنك بالحَلْفا ءِ إنْ أَشْعَلْتها نارا

(١) الخلس : المختلس .
(٢) أنبس : همس بكلامه .

ويقال إنه تغيَّر عقل أبى على البصير قبل موته بقليل ، وكان يثوب إليه عقله ، فيأسى على نفسه وما أصابه من خرف الشيخوخة ، وفى ذلك يقول :

خَبَا مصباحُ عقلِ أبى علىٍّ وكانتْ تستضيىء به العقولُ
إذا الإنسان مات الفهم منه فإن المـوت بالباقى قليل

ولعل فى كل ما ذكرناه من شعره ما يدل على حذقه حقًّا وأنه كان خِصْب الذهن . وكان لا يزال يعرض على معاصريه ما يزيدهم به إعجابًا وبشعره استحسانًا .

أحمد [1] بن أبى طاهر

اسم أبى طاهر طيفور ، وأحمد ابنه رُزق به فى بغداد لسنة ٢٠٤ ، وأصل الأسرة من مَرْو ، ويقال إنها من سُلالة ملوك خراسان . أخذ عن علماء بغداد ، حتى إذا استوى عوده جلس للتعليم فى بعض الكتاتيب ، ثم ترك التعليم واحترف الوراقة ، مما جعله يقرأ كثيراً من مصنفات عصره والعصر السابق له ، وسرعان ما تحوَّل إلى مؤرخ كبير ، كما يشهد بذلك كتابه تاريخ بغداد فى أخبار الخلفاء والأمراء وأيامهم ، وهو أحد المصادر الأساسية التى اعتمد عليها الطبرى فى تأليف كتابه تاريخ الرسل والملوك : أهم مرجع تاريخى للخلفاء حتى أوائل القرن الرابع الهجرى . وله بجانب ذلك كتاب المنثور والمنظوم الذى يشتمل على أبرع الرسائل المدوَّنة فى العصر . وله كتاب فضائل الورد على النرجس وكأنه صنعه ردًّا على ابن الرومى وأمثاله ممن كانوا يفضلون النرجس على الورد . وكان يتشيَّع ، ولكن ليس لدينا من شعره الشيعىّ سوى القصيدة التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضع والتى رثى بها يحيى بن عمر الطالبى المقتول بالكوفة فى زمن المستعين . ويبدو أنه كان إماميًّا يأخذ بالتقيَّة ، ولا يجد بأسًا فى مديح الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم ،

---

(١) انظر فى أخبار أحمد بن أبى طاهر طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٦ ومروج الذهب ٤ / ٦٤ والفهرست ص ٢١٥ حيث ذكر له ثمانية وأربعين كتاباً وتاريخ بغداد ٤ / ٢١١ ومعجم الأدباء ٣ / ٨٧ وكتاب الزهرة لابن داود (انظر الفهرس) وديوان المعانى ١ / ٤٨ ، ٩٤ والموشح للمرزبانى ص ٣٥١ .

وفتحوا له جميعًا أبوابهم . وربما كان من أهم الأسباب فى فتحها كتابه السالف « تاريخ بغداد » الذى أرَّخ فيه للدولة وخلفائها . وفتح له كتاب المنثور والمنظوم أبواب الأدباء لا فى بغداد وحدها ، بل أيضًا فى سامرَّاء طوال اتخاذها حاضرة للخلافة . وبجانب تصنيفاته كان شاعراً بارعًا ، ولكن قبل أن نعرض لشعره يحسن أن نقف عند ما قاله بعض معاصريه من أنه « كان مُؤدِّبَ كُتَّاب عاميًّا ثم تخصص وجلس فى سوق الوراقين فى الجانب الشرقى ببغداد ، وليس فيمن شُهر بمثل ما شُهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصحيفًا منه ولا أبلد علمًا ولا ألحن ، قال : ولقد أنشدنى شعراً يعرضه علىّ فى إسحق بن أيوب لحنَ فى بضعة عشر موضعًا منه وكذا قال لى البحترى فيه » . وشهادة البحترى فيه مردودة ، لأنهما كانا يتهاجيان ولا يرضى كل منهما عن صاحبه ، ونفس أبى طاهر — كما فى كتاب الموشح للمرزبانى — يصف البحترى باللحن فى شعره . وبالمثل شهادة هذا المعاصر له مردودة لأنه كان يخاصمه على ما يبدو . وليس فى شعره الذى بين أيدينا ما يصوّر هذا اللحن ، ونرى معاصريه ومن جاءوا بعدهم يشهدون له بالفصاحة والبلاغة ، فالخطيب البغدادى — ومثله ياقوت — يقولان : « كان أحد البلغاء الشعراء الرواة » . وشعره يشهد ببلاغته ، وأخباره تدل على إعجاب معاصريه به وبشعره . وكان يغدو به ويروح على الوزراء ، فيُسْبِغون عليه جوائزهم من مثل قوله فى أبى الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد يهنئه بأحد أعياد النيروز أوائل الربيع :

أَبا الصَّقْرِ لا زالتْ من اللهِ نعمةٌ ... تجدِّدها الأَيامُ عندك والدَّهرْ
ولا زالتِ الأَعيادُ تمضى وتنقضى ... وتَبْقَى لنا أَيامُك الغُرَرُ الزُّهْرُ
فإنك للدنيا جمالٌ وزِينَـةٌ ... وإنك للأَحرار ذُخْرٌ هو الذُّخْرُ
رأَيت الهدايا كلها دون قدركم ... وليس بشىءٍ عند مقداركم قَدْر
فأَهديتُ من حَلْىِ المديح جواهرًا ... مفصَّلةً يُزْهَى بها النظم والنَّثر

وكانوا يتقدمون للوزراء وعلية القوم فى أعياد النيروز بالهدايا كل حسب قدرته من الجواهر أو من الرياحين ، ورأى ابن أبى طاهر أن خير ما يهديه لإسماعيل بن بلبل عقود أشعاره المرصوفة بالجواهر واللآلىء . والأبيات قوية جزلة مصقولة ، وتدل

على أن يَدَ شاعر صَنَاع هى التى كتبتها وصاغتها هذه الصياغة المتينة . وأروع من هذه القصيدة قصيدته فى أبى أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر نائب أخيه محمد فى حكم بغداد ، ثم حاكمها بعد وفاته سنة ٢٥٢ ، وهى تلتقى بقصيدة تُرْوَى لابن الرومى سبق أن أنشدنا منها فى ص ٣١٠ بعض أبيات . ولعل القصيدتين اختلطتا فى أذهان الرواة ؛ ومن قصيدة ابن أبى طاهر فى مديح أبى أحمد كما جاءت عند بعض الرواة :

مَنْ لم يكن حَذِرًا من حَدِّ صَوْلَتِه ... لم يدر ما المزعجان : الخوف والحَذَر
حُلْوٌ إذا أنتَ لم تبعثْ مرارته ... فإن أَمرَّ فحُلْوٌ عنده الصَّبِرُ
سهلُ الخلائق إلا أنه خَشِنٌ ... لَيْنُ المهزَّة إلا أنه حَجَرُ
إذا الرجال دَجَتْ آراوهم وعَمُوا ... بالأمر رُدَّ إليه الرَّأْىُ والنظر
الجودُ منه عِيانٌ لا ارتياب بهِ ... إذْ جودُ كلِّ جوادٍ عنده خَبَرُ

وبلغ من إعجاب القدماء بهذا المديح أن قال بعض أدبائهم : لو استُعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر . وهى أبيات — إن صَحَّ أنها لابن أبى طاهر — تدل على بصر بالشعر وروعة فنونه البديعية ، وله رسالة فى سرقات البحترى تدل من بعض الوجوه على ثقافته الشعرية ، بل لقد اتسعت دراسته للشعر العربى على نحو ما يصور ذلك كتابه المنظوم والمنثور . وقد مضى يُحْكم فى القصيدة التقسيم كما فى الأبيات الأربعة الأولى ، كما أحكم الطباق والتقابل بين المعانى والألفاظ على نحو ما يتضح فى الأبيات الأربعة الثانية . وكان يُحْكم — بجانب المديح — الهجاء اللاذع الذى يلسع كما تلسع الإبر دون فحش من مثل قوله فى أبى العيناء الضرير نديم المتوكل والخلفاء ومضحكهم بإجاباته ونوادره :

كُنَّا نخاف من الزمـ ... ـن عليك إذ عمىَ البَصَرْ
لم نَدْرِ أنك بالعَمَى ... تَغْنَى ويَفْتَقِرُ البَشَرْ

وكان يتعرض أحيانًا للمبرّد ، فيخشى معرَّة لسانه ، ويقال إنه استقبله فى

يوم صيف شديد الحرارة فأكرمه وبالغ فى إكرامه ، فأطعمه غذاء طيباً ، وسقاه بارداً ، وأخذ يباسطه فى الحديث ، مؤملا أن يمتدحه ببعض شعره ، وإذا هو ينشده :

ويومٍ كحرِّ الشَّوْقِ فى صَدْرِ عاشقٍ ... على أنه منهُ أَحرُّ وأَرْمَـدُ

ظللت به عند المبرِّد قائلا ... فما زلتُ فى ألفاظه أَتبرَّد[1]

فقال له المبرّد : قد كان يسعك إذا لم تحمد أن لا تذم ، ومالك عندى جزاء إلا أن تَغْرُبَ عن عينى . فتركه وهو يضحك من أثر دعابته فى نفس المبرد شيخ العربية لعصره . وأنشد له ابن داود طائفة كبيرة من غزلياته ، من مثل قوله :

حبيبى حبيبٌ يكتم الناسَ أنه ... لنا — حين ترمينا العيونُ — حبيبُ

يباعدنى فى الملتقى وفـؤَادُه ... — وإن هو أبدى لى البعادَ — قريبُ

ويُعرض عنى والهوى منه مقبلٌ ... إذا خاف عَيْناً أو أشار رَقيبُ

فتخرَسُ منا ألسنٌ حين نلتقى ... وتنطق منا أَعْيُنٌ وقلوبُ

فهما يتناكران أمام الناس ، وكل منهما شديد الكَلَفِ والوَلَع ، يتجرع غصص الهوى وآلامه ، ولا يستطيع البوح بما فى ضميره ، وهما لذلك يصطنعان التحفظ والاحتشام ، وقلوبهما تحترق وجداً ، وقد خرست منهما الألسنة ونطقت العيون بمكنون الضمير . وهو مع ذلك يكثر من الاختلاف إلى دارها ومجلس مولاها وليس من رسل بينه وبينها سوى لغة العيون ، يقول :

إذا ما التقينا والوشاةُ بمجلسٍ ... فليس لنا رُسْلٌ سوى الطَّرْف بالطَّرْفِ

فإن غَفَلَ الواشون فُزْتُ بنظرةٍ ... وإن نظروا نَحْوى نظرتُ إلى السَّقف

فهو يسارقها النظر ويختلس منها النظرة فى الحين بعد الحين ، حتى لا يفتضح أمرهما للواشين ويجعلهم يقفون على حبه للمرأة وحبها له وأنها لا تفرّط فيه ، بل شديدة الحرص عليه . ومع ذلك يجرى بينهما حديث صامت لا أول له ولا آخر

---

(١) قائلا : مستريحا وقت القيلولة ؛ وهى نصف النهار .

عن عذابهما فى الحب وما يصطليان من ناره ، على الرغم من الرقباء والوشاة ، يقول :

عرفتْ بالسَّلام عَيْنَ الرَّقيبِ وأَشارتْ بلحظِ طَرْفٍ مُرِيبِ
وشكتْ لوعةَ النَّـوَى بجفونٍ أَعربتْ عن ضمير قَلبٍ كئيب
رُبَّ طَرْفٍ يكون أَفصحَ من لَفْـ ـظٍ وأَبْدَى لمُضْمَراتِ القلوبِ

فهى تلفته بلحظها الفاتن إلى الرقيب ، وتشكو لوعة النَّوَى وحرقة الحب بعيونها ، واصلة نظرها الشَّزْرَ إلى الرقيب بنظرها اللَّين إليه مُعْرِبة عن ضميرها وما يخفى فى صدرها من الحب له والكلَف به . وهو يحدثها بنفس اللغة ، فيفهم قلبها عن قلبه وضميرها عن ضميره ، وتبادله بنفس اللغة أنها على الوفاء له مقيمة ، يقول :

أَلاحظُها خوفَ المراقب لحظةً فأَشكو بطَرْفى ما بقلبى من الوَجْدِ
فتفْهَمُهُ عن لَحْظِ عينى بقلبها فتومى بِطرْفِ العين أَنى على العَهْدِ

فهما دائمًا يتكلمان بلغة الطرف ، لغة يصمت فيها اللسان ، وتنطق القلوب بما تضمنت من الوجد ولوعاته ، وهما يتغامزان بالنظرات ويتلاحظان ، وكأنما لا يتكلمان بتلك اللغة الصامتة الفصيحة فقط بل يتراسلان بها ويتكاتبان مكاتبات حارة ، يقول :

كتبتُ إلى الحبيب بكسر عينى كتاباً ليس يَقْرَؤُهُ سِـوَاهُ
فأَخبرنى تورُّدُ وَجْنَتَيْهِ وكَسْرُ جفونه أَن قد قَرَاهُ

ولعل فى كثرة رسوم ابن أبى طاهر لهذا الموقف ما يدل على دقة حسِّه من طرف وثراء خواطره وأفكاره من طرف آخر ، وفى كثير من هذه الرسوم براعة فى التصوير كما نرى فى البيت الأخير ، ومن بديع تصويره قوله فى إحدى المحجَّبات اللائى شُغف بهن :

حجابٌ فإن تبدو فللدَّمع جـولةٌ يكون له من دون رؤْيتها سِتْرَا

فهو دائمًا منها فى حجابين، حجاب حين لا يلقاها . وحجاب من دموعه حين يلقاها ، وكأنها محجبة دائمًا ، وراء أستار من الحجاب صفيقة وأستار أخرى رقيقة من الدموع الغزار . ويحدثنا ياقوت نقلا عن أحد الرواة أنه كان يلمّ ببعض الأديرة أحيانًا فى طريقه إلى سامرّاء أو بعد رجوعه منها ، ويُنْشد له خمرية ، ويبدو أن الخمر لم تكن من متاعه إلا فى بعض أحوال عارضة . وما زال يُعْنَى بالتصنيف ونظم الشعر حتى توفى سنة ٢٨٠ للهجرة .

ابن [١] دريد

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، من أزد عُمان ، كانت أسرته على شىء من اليسار ، وقد استوطن أبوه البصرة ،وفيها وُلد له سنة٢٢٣ وعُنى عمه الحسين بتعليمه فألحقه منذ نعومة أظفاره بالكتاتيب ثم بحلقات العلماء ، وكانت له ذاكرة عجيبة لا يكاد شىء يسمعه يفلت منها ، مما أعدّه لأن يكون من كبار اللغويين فى عصره . وقد أكبّ على محاضرات الرّياشى وأبى عثمان الأشْنَانْدانىّ وأبى حاتم السجِستانى وغيرهم من علماء البصرة ، فأخذ كل ما عندهم . ولما استباح الزنج البصرة سنة ٢٥٧ ونكّلوا بأهلها تنكيلا شديداً فرّ مع عمه الحسين إلى عُمان وطن قبيلته الأزد ، وظل بها اثنى عشر عامًا إلى أن قضى الموفق على ثورة الزنج قضاء نهائيًا ، وحينئذ يعود إلى البصرة حين عاد إليها الأمن والسلام . ويظل بها إلى أن يستدعيه عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وفارس لتأديب ابنه أبى العباس إسماعيل وتثقيفه . ويلبّى الدعوة ، ويرحب به الوالى ترحيبًا عظيمًا ، ويقلده ديوان إمارته فارس وتقبل عليه الدنيا إذ تنهال عليه الأموال . وينظم فى الوالى وابنه قصيدته الطويلة المشهورة باسم المقصورة ، التى عرضنا لها فى حديثنا عن الشعر التعليمى وتطير شهرتها وتتكاثر شروحها ، وتُطْبَعُ فى عصرنا بشرح التبريزى وبشروح

---

(١) انظر فى ترجمة ابن دريد وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٢٥ وتاريخ بغداد ٢/ ١٩٥ وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٨/ ١٢٧ ونزهة الألباء . والفهرست ص ٩٧ وشذرات الذهب ٢/ ٢٨٩ ولسان الميزان ٥ / ١٣٢ وتكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٧٦ والوافى بالوفيات للصفدى ٢ / ٣٣٨ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٢٢٩ وطبقات الشافعية ٣ / ١٣٨ والنجوم الزاهرة ٣ /٢٤٠ روضات الجنات ٦٠٥ وقد طبع ديوانه فى القاهرة .

أخرى وتكثر تخميساتها على مَرِّ القرون . وفى أثناء عمله عند ابن ميكال ألَّف الجمهرة لابنه إسماعيل ، وهى معجم لغوى بدأ فيه على طريقة معجم العين المنسوب إلى الخليل بالثنائى ثم بالثلاثى ثم بالرباعى ثم بملحقه ثم بالخماسى والسداسى وملحقاتهما ، وجمعَ النوادر فى باب منفرد . أملاها أولا فى فارس ، ثم أملاها فى البصرة ثم فى بغداد ولذلك اختلفت نسخها اختلافات كثيرة . وكان من أهم ما ألفه لإسماعيل ، كى يحسن العربية ، كتاب الأربعين حديثًا ، قصَّ فيه حكايات عربية قديمة تقوم على الحب غالبًا كما تقوم على التاريخ ، ويقول الحُصْرى عن هذه الأحاديث إنها هى التى ألهمت بديع الزمان مقاماته[1] . ويبدو أنه ألَّف عند ابنى ميكال كثيراً من مصنفاته ، ومما نُشر له منها فى عصرنا كتاب الاشتقاق وكتاب السَّرْج واللجام وكتاب صفة السحاب والغيث وكتاب الملاحن ويشتمل على ألغاز لغوية . وما زال يعيش فى رحاب ابنى ميكال حتى عُزلا عن فارس ، فانتقل إلى مسقط رأسه ، ثم تركها إلى بغداد سنة ٣٠٨ وكان صيته وشهرته العلمية سبقاه ، فاستقبلته بغداد استقبالا حافلا ، وأجرى عليه المقتدر خمسين ديناراً شهرياً إلى أن توفى سنة ٣٢١ عن نحو ثمانية وتسعين عامًا . وأهم مدائحه وأشعاره مقصورته التى ذكرناها آنفًا ، وقد حلَّلناها فى حديثنا عن الشعر التعليمى ، ونقف منها الآن عند مديحه للأمير عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبى العباس إسماعيل ، وفيهما يقول :

تلافيا العَيْشَ الذى رَنَّقَــهُ ... صَرْفُ الزمان فاستساغ وصَفَا[2]
وأجــريا ماء الحَيَا لى رغَــدًا ... فاهتزَّ غُصْنِى بعد ما كان ذَوَى[3]
إن ابن ميكال الأَميرَ انتاشنى ... من بعد ما قد كنت كالشىءِ اللَّقَا[4]
ومَدَّ ضَبْعَىَّ أبو العباسِ من ... بعد انقباض الذَّرْعِ والباع الوَزَى[5]

(١) انظر زهر الآداب ١ / ٣٠٧ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (طبع دار المعارف — الطبعة السادسة) ص ٢٤٨ .
(٢) رنقه : كدره .
(٣) الحيا : الغيث والخصب .
(٤) انتاشنى : تناولنى . واللقا : المرمى فى عرض الطريق لا يعبأ به .
(٥) الضبع : وسط العضد . ومد ضبعيه : بسطهما ، كناية عن اتساع حاله . وانقباض الذرع والباع كناية عن ضيق الحال .

ذاك الذى ما زال يسمو للعلا بفعله حتى عَلا فوق العُلا
لو كان يَرْقَى أَحـدٌ بجودِهِ ومجـده إلى السَّماء لا رْتَـقَى
ما إن أتى بحرَ نَدَاهُ مُعْتَفٍ على أُوارَى عَلَم إلا ارْتَوَى[1]
نَفْسِى الفِداءُ لأَميرىَّ ، ومَنْ تحتَ السماء لأَميرى الفِدا

وطبيعى أن يُعْنَى ابن دريد فى هذا المديح بإدماج شىء فيه من الألفاظ الغريبة ، لأنه أراد بالقصيدة أن تكون متنًا لغويًّا ، وتحققت له إرادته ، لا بما وضع فيها من ألفاظ غريبة فحسب ، بل أيضًا بما حشد فيها من الألفاظ المقصورة . ومع ذلك فقد استطاع فيها أن يوازن بين ما جمع من الألفاظ الغريبة ولغة الشعر العذبة ، فاختار لها أسلوبًا وسطًا بين الإغراب والسهولة ، كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع . وهذه الأبيات نفسها تصور هذا المسلك . فهى لا تتعمق فى الإغراب ، بل تظل فيها نضرة الشعر وجماله . وله وراءها مدائح مختلفة لا يغمسها فى الغريب وألفاظه من مثل قوله فى أبى أحمد حُجْر الجويمىّ أحد رجالات فارس النابهين :

حُجْرُ بن أحمد فارعُ الشرف الـذى خضعتْ لعزَّته طُلَى الأَعناقِ[2]
انظـرْ أناملَه فلسنَ أناملاً لكنهن مفـاتحُ الأَرْزَاقِ
وانظـرْ إلى النور الذى لو أنه للبدر لم يُطْبَعْ برِيْن محاقِ[3]

وكان يجيد فن الرثاء ، وله مرثية بديعة فى عمه الحسين بن دريد الذى تعهد تربيته ، ومن خير مراثيه مرثية فى محمد بن جرير الطبرى علَم الدراسات الدينية والكتابات التاريخية فى عصره ، وفيها يقول :

إن المنية لم تُتْلف به رجـلا بل أَتلفتْ علماً للدين منصوبا
كان الزمان به تصفو شاربُه والآن أصبح بالتَّكدير مَقْطوبا[4]
كلا وأيامِه الغُرِّ التى جُعلتْ للعلم نورًا وللتقوى محاريبَـا

(١) الندى : الكرم . المعتفى : طالب النوال والأوارى : النار . العلم : الجبل .
(٢) طلى : جمع طلية ، وهى أصل العنق .
(٣) الرين : الأذى . يطبع : يدنس .
(٤) مقطوباً : ممزوجاً .

وتُنْسب له قصيدة فى ذكرى الرسول عليه السلام نشك فى نسبتها إليه لأن قصائد هذه الذكرى إنما ذاعت وشاعت فى عصر متأخر . وله قصيدة طويلة فى رثاء الإمام الشافعى ، أو بعبارة أدق فى بيان مكانته العلمية الخطيرة ، وفيها يقول :

لرأيِ ابنِ إدريسَ ابن عمِّ محمَّدٍ ضياءٌ – إذا ما أظلم الخطبُ – صادعُ
إذا المعضلاتُ المشكلات تشابهتْ سما منه نور فى دُجَاهُنَّ ساطع
أَبَى اللهُ إلا رَفْعَهُ وعلوه وليس لما يُعليه ذو العرش واضع

وهى قصيدة بديعة . وبحقٍّ يقول المسعودى إنه كان يذهب فى الشعر كل مذهب ، فطوراً يجزل وطوراً يرقّ ، وطوراً يصبح بدوياً متعمقاً فى الفلوات وفى وصف الإبل والخيل ، وطوراً يصبح حضرياً يصف الرياض والزهور ، ومن قوله فى النرجس :

عيونٌ ما يلمّ بها الرُّقَادُ ولا يمحو محاسنَها السُّهادُ
لها حَدَقٌ من الذهب المصفَّى صياغةَ مَنْ يدين له العباد
وأَجْفانٌ من الدُّرِّ استفادتْ ضياءً مثلُه لا يستفاد

ومن تمام هذا الإحساس الحضارى عنده أن نجده يتغزل أحياناً غزلا رقيقاً ، من مثل قوله واصفاً مدى فتنة الناس بمحبوبته ، حتى كأنهم جميعاً شركاء له فى الحب وضَنَاه :

أُعاد من أجلك لا من ضَنًى وسائر العُوَّاد أشراكى
ولست أشكوك إلى عائدٍ أخاف أن أشكو إلى شاكى

فالناس يزورونه من ضَنَاه فى حب صاحبته لا من ضَنا مرضٍ ألمَّ به ، وهو لا يشكو لهم من عذابه فى حبها ولا من وصَبَه فيه ، لأنه يراهم جميعاً مثله ، يعانون ما يعانيه من لوعات الحب وآلامه . وكان يتورط فى الخمر وإثمها ، كما كان يتعلق بالغناء وآلاته ، حتى ليقول بعض معاصريه ممن كانوا يزورونه فى شبخوخته إنه كان يستحى مما يرى من الشراب والعيدان المعلقة ، ومن قوله يصف الخمر قبل المزج وبعده :

وحمراء قبل المَزْج صفراء بعـــده أتتْ بين ثَوْبَىْ نَرْجِس وشقائقِ
حكتْ وجْنَةَ المعشوق صِرْفاً فَسَلَّطوا عليها مِزاجاً فاكتستْ لونَ عاشِقِ

ويقال إنه عرض له فى أواخر عمره فالج (شلل) وسُقِى الدرياق فبرئ ، ورجع إلى أفضل أحواله وإملائه على تلامذته . ثم مرض به ثانية ، وظل سنتين توفِّى فى نهايتهما ، وتصادف أن كانت وفاته فى نفس اليوم الذى توفى فيه أبو هاشم الجُبَّائى المتكلم المعتزلى المشهور ، ودُفنا معًا ببغداد فى مقبرة الخيزران .

٥

شعراء الهجاء

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن شعر العصبيات القبلية خبت ناره فيه وخبت معه نار النقائض ، وحل محله شعر شعوبى أحيانًا . ولكن الكثرة الكثيرة كانت هجاءً شخصيًّا يتعرض للأعراض مزريا بالمهجوّين محقِّراً لهم ومهوِّنًا . ونستطيع أن نطرد هذا الحكم فى العصر العباسى الثانى ، مع ملاحظة أن الشعر الشعوبى خبت ناره بدوره . ويبدو أن الفرس هم الذين كانوا يمدون تلك النار بوقود جزل ، فلما ضعف شأنهم فى العصر وحل الترك محلهم فى السلطان ولم يعد لهم حول ولا قوة خفَّت حدَّة شعوبيتهم ولم يعد شعراؤهم يتغنون بها إلا نادراً ، وحتى هذا النادر لم تحتفظ به المصادر إلا قليلا جداً ، لأنه لم يكن لشعراء نابهين إنما كان لشعراء مغمورين قلما عُنِى بهم أحد مثل محمد بن أبان الذى كان يكثر من الافتخار بالعجم[1] ، ولم يبق من افتخاره شىء . وبذلك كان الهجاء الشخصى هو اللون العام فى العصر ، وسبق أن لاحظنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن شعراءه أكثروا فى هجائهم من القول الفاحش المقذع فى الأمهات والأخوات وظل ذلك فى هذا العصر وظل معه ذكر العورات مما ينبو عن الذوق هو وكل ما يتصل به من بذاءة ، لن نقف عندها ، إنما نقف عند الهجاء غير البذىء ، وكانت نيرانه مضطرمة طوال العصر ، فالشعراء

(١) معجم الشعراء ص ٣٧٩ .

يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو قصَّر فى عطائهم ، وكذلك كلما لقيهم قائد أو وال أو كاتب أو شخص نابه أو عالم لقاء غير حميد . وكثيراً ما كانت تجرُّهم المنافسة إلى الدخول فى معارك هجاء حامية الوطيس . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، ما قيل عن البحترى من أنه هجا كثيراً من ممدوحيه ، وبالغ بعض القدماء فقالوا إنه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفتان هما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء[1] . وإذا صح هذا عن البحترى الذى كانت تُفْتَحُ له الأبواب الموصَدة ، وكان يمشى — بفضل جوائزه الكثيرة — فى موكب من عبيده فضلا عما كان يملك من الضياع فإن كثيرين غيره تورطوا فى الهجاء للرؤساء بأكثر من تورطه . ومرَّ فى حديثنا عن ابن الرومى إكثاره من الهجاء ونفوذه فيه إلى لون من التصوير الهزلى الساخر يكبرِّ فيه عيوب المهجوين الجسدية والمعنوية . وابن الرومى والبحترى أكبر شعراء العصر ، وعلى غرارهما كان الشعراء جميعاً يُسْهِمون فى هذا الفن ، وكثيراً ما كانوا يخصُّون به الوزراء حين يَحْرمونهم الجائزة ، ولن ينفع الوزير عندهم أن يكون ممدَّحاً ، بل لعل ذلك أدعى إلى أن يسلِّط عليه الشاعر سهام هجائه ، من مثل قول دَنْدن فى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وكاتبه ابن يزداد[2] :

وإن ابن يَزْدادٍ لأَحولُ حُوَّلٌ ولكنه يَقْرَا (إذا الشمسُ كُوِّرَتْ)
فقُلْ لعبيد الله أحييتَ دولتىْ مكاسير زَمْنَى (عُطِّلت) فتحيَّرتْ
وأنت — إذا مُيِّزْت — أبلدُ منهمُ فصوتكمُ : حَىَّ المنازلَ أقفرتْ

ومجيئه بالآية القرآنية وكلمة (عُطلت) الواردتين فى سورة التكوير يريد أن يشير بذلك إلى خراب الدولة ، لأن السورة فى وصف نهاية العالم وما يكون بعد ذلك من البعث والنشور . وكان الشعراء كثيراً ما يتعرضون لأحمد بن إسرائيل وزير المعتز بالهجاء من مثل قول محمد بن مكرم[3] :

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٣٣٦ .
(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٦ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

إن زماناً أنت مستوزرٌ فيه زمانٌ عَسِرٌ أنْكَدُ
يذمّك الناسُ جميعاً فما يلقاك منهم أحدٌ يَحْمَدُ

ولما انتكست الوزارة فى عصر المقتدر وكثرت الرشوة وعم الفساد فى الحكم وعم معه الظلم كما عمت مصادرة الأموال، توالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً، ومنهم من تولى الوزارة مرتين وثلاثاً ، وكل وزير يصادر الذى قبله ويعمل كل ما فى وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدولة ، لما حدث كل هذا الانتكاس لأداة الحكم كثر هجاء الوزراء من مثل قول بعضهم فى هجاء الخاقانى الوزير[1] :

للدواوين – مذ وليتَ – عويلُ ولمال الخراجِ سقمٌ طويلُ
يتلقى الخطوبَ حين ألمَّتْ منك رأىٌ غَثٌّ وعقلٌ ضئيلُ
إن سمنتم من الخيانة والجَوْ رِ فللإرتفاع جسمٌ نحيلُ

وكان الخاقانى معروفاً بسوء السيرة والتدبير ، وأخذ الرشوة ممن يولّيهم الأعمال ، ولذلك كثرت فى أيامه الولاية والعزل ، وكأن الدولة أصبحت دولة لصوص وقُطّاع طرق . ومن هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق ابن البريدى الوزير بأخرة من العصر وفيه يقول أبو الفرج الأصبهانى من قصيدة طويلة[2] :

يا سماءُ اسْقُطى ويا أرضُ ميدى قد تولَّى الوزارةَ ابنُ البَريدى
هُدَّ ركنُ الإسلام وانهتك الملـ ـك ومَحَّتْ[3] آثاره فهْو مُودى
فاستهلِّى ياعينُ بالدمع سَحًّا وقليلٌ أن تَذْرفى وتجودى

ومرَّ بنا آنفاً أن المنافسة بين الشعراء كثيراً ما دفعتهم إلى التهاجى ، وممن تعرَّضوا له بالهجاء كثيراً مروان بن أبى الجنوب شاعر المتوكل ، إذ كانوا ينفسون عليه الجوائز الطائلة التى كان يخصُّه بها المتوكل ، حتى من كانت تصلهم منه جوائز مماثلة ، وكأنه تحاسد أهل الحرفة الواحدة ، على نحو ما حدث بينه وبين على بن

(١) الفخرى ص ١٩٨ .
(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ١١٣ .
(٣) محت : درست .

الجهم، وكان أكثر توقراً منه فى هجائه ، إذ لم يكن يُسِفُّ فيه إلى ذكر الأعراض. ويتهاجى مع أبى نعامة الدقيق ، ويكويه بمثل قوله فى نعت شعره [١] :

رأينـــا البَرْدَ مشتَدًّا فساءلْنا عن القصَّه
فقالوا مُنْشِدٌ يُنشـ ـد شعرَ ابن أَبى حَفْصَه

وكان أبو نعامة كما مَرَّ بنا شيعيًّا وكان خبيث اللسان ، فقصر شعره على هجاء القواد ورؤساء الدولة فى أيام المتوكل ورماهم بأشنع القبائح ، وهو هجاء كانت بواعثه سياسية. وكانوا ربما يهجون بالتزندق والانحراف عن الدين والإلحاد من مثل قول الجَمَّاز فى الجاحظ [٢] :

يا فتى نفسُـــه إلى مِلَّة الكُفْر تائقَـــهْ
لك فى الفضل والتزهـ ـدِ والنُّسْك سابقه
فدَعِ الكفرَ جانباً يا دَعِيَّ الزنادقه

وهو كذب وبهتان على الجاحظ أحد المحامين عن الإسلام فى عصره المدافعين المناضلين ، ولكنه الهجاء يصمُ الناس بوصمات كاذبة افتراء وبهتانًا . ومن مثل هذا الافتراء والبهتان قول شاعر فى محمد بن يزيد المبرّد العالم النحوى المشهور [٣] :

سألنا عن ثُمالةَ كلَّ حَىٍّ فقال القائلون ومَنْ ثمالَهْ
فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا زدتنا بهمُ جَهَالَهْ

وثمالة هى عشيرة المبرد ، والبيتان يحملان تحقيراً شديداً وتهويناً بعيداً للمبرد وأنه خامل الذكر، وكان قد طبَّق آفاق البلاد العربية شهرة فى عصره وقصده الطلاب من كل بلد يحملون عنه علمه . وبلغ من شيوع الهجاء حينئذ وانتشاره فى كل الأوساط أن المرأة شاركت فيه ، وكان لها قديماً مشاركة فى رثاء أهلها وندبهم والتفجع عليهم والنواح ، وكذلك كان لها مشاركة فى الغزل والتعبير عن عواطف الحب ومشاعره ، حتى إذا كان هذا العصر رأيناها تضيف إلى هذين الموضوعين مشاركة فى الهجاء من

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ .
(٢) معجم الشعراء ص ٣٧٥ .
(٣) ديوان المعانى ١/١٧٨ .

مثل قول الخنساء جارية هشام المكفوف فى أبى الشبل الشاعر الماجن ، تهوّن من رجولته طاعنةً له فى الصميم[١] :

ما ينقضى عجبى ولا فكرى ... من نعجةٍ تكنى أبا الشِّبْلِ
لما اكتنيْتَ لنا أبا الشِّبْل ... ووصفتَ ذا النقصان بالفضل
كادتْ تميد الأرضُ من جَزَعٍ ... وترى السماءَ تذوب كالمُهْلِ

وهى تصوره متمرداً على حقيقته ، فهو من النعاج ويزعم أنه من الآساد ، وكأنما الدنيا انقلبت صورها وأوشكت على الزوال ، فالأرض تميد جزعاً ، وكأن يوم القيامة حل موعده ، فالسماء تذوب كالمُهْل أو الزيت المغلى . ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من كبار الهجائين فى العصر هم الصَّيْمرى والحَمْدونى وابن بَسَّام .

الصيمرىّ[٢]

هو أبو العَنْبَس محمد بن إسحق ، أصله من الكوفة ، وتولى القضاء بالصَّيْمُرة فنُسب إليها ، وهى نهر بالبصرة عليه قرى وبلد وزروع ، قدم سامرّاء فى عصر المتوكل فقرّبه منه واتخذه نديماً له ، لما كان يمتاز به من الفكاهة والتنديز ، وكأنما أتيح له مبكراً أن يفرغ للتأليف ، إذ روى له ابن النديم فى الفهرست طائفة كبيرة من المصنفات ، ونجد بينها ما يتصل بالمنادمة ، ككتب الأطعمة وكتاب الجوابات المسكتة . وكان عالماً بالنجوم ، وله فيها كتابان . ولم يكن يجمع بين الهزل والعلم ، فقط ، فقد كان يضيف إليهما الشعر ، ويقولون إنه كان خبيث اللسان ، هاجى أكثر شعراء زمانه ، ومع ذلك لم يصلنا من هجائه إلا أشعار قليلة من مثل قوله فى إبراهيم بن المدبر ، وكان قد تولى الولايات الكثيرة وترأس بعض الداوين ، فى سامرّاء وبغداد :

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٥ .

(٢) انظر فى الصيمرى وأخباره وأشعاره كتاب الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٧٣ والفهرست ص ٢٢٢ وتاريخ بغداد ١/ ٢٣٨ ومروج الذهب ٤ / ٩ ومعجم الأدباء ١٧ / ٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٤ والوافى بالوفيات ٢ / ١٩١ .

أَسَلُ الذى عطَف المـــوا كبَ بالأَعنَّة نحو بابكْ
وأَذلّ مـــوقِفَ العزيـ زَ على وقوفى فى رِحابكْ
وأَراك نفسَك مالـــكا مالم يكن لك فى حسابك
أَلاَّ يُطيل تجرُّعى غُصَصَ المنيَّة من حجابك

وله خبر طويل مع البحترى هجاه فيه وسخر منه سخرية مرة ، إذ حدَّث الرواة أنه كان من عادة البحترى إذا أنشد المتوكل شعره أن يتشادق ويتزاور فى مشيه مرة متقدمًا ومرة متأخراً ويهز رأسه مرة ومنكبيه مرة أخرى ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المتوكل ومَنْ فى مجلسه فيقول : مالكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . وكان المتوكل يضجر من ذلك . فأقبل على الصيمرى والبحترى ينشده مدحته فيه :

عن أَىِّ ثغرٍ تبتسمْ وبأَى طَرْفٍ تحتكمْ

وقال له : أما تسمع ما يقول ؟ فقال له الصيمرى : بَلَى . فمُرْنى فيه بما أحببت . فقال : اهْجُه على هذا الرَّوِىِّ ، فحضرتْه على البديهة قصيدةُ هجاءٍ طويلة من نفس الوزن والقافية ، وفيها يقول :

يا بُحْتُرِىُّ حذار وَيْ لك من قُضاقضةٍ ضَغِمْ[1]
فبِأَىِّ عِرْضٍ تعتصم وبهتكه جَفَّ القَلَمْ
ولقد أَسلتَ بوالدي لك من الهِجا سَيْلَ العَرِمْ
يا بن الثقيلة والثَّقيـ ـل على قلوب ذَوى النِّعم

ومضى يُفْحش فى القصيدة ويُقْذع فيها إقذاعًا قبيحًا . ولا ريب فى أن نَظْمه قصيدة طويلة بهذا النمط على البديهة يدل على شاعرية قوية . وظل خفيفًا على قلوب الخلفاء . يسلكونه فى ندمائهم حتى عصر المعتمد . أو بعبارة أخرى حتى توفى فى عصر هذا الخليفة لسنة ٢٧٥ . وله يهجو طبَّاخه المسمى صالحًا :

(١) القضاقضة : الأسد . ضغم : مفترس .

يا طيبَ أيامى بمعشوقِ ونحن فى بُعْدٍ من السُّوقِ
إذا طلبت الخبز من فارس ينفخ لى صالحُ بالبُوقِ

وله بجانب أهاجيه مدائح لبعض الوزراء ورؤساء الدواوين . ومما احتفظت له المصادر به قطعة فى مديح الحسن بن مخلد وزير المعتمد حين كان يتولى ديوان الضياع للمتوكل ، وهى تطرد على هذا النمط :

زارنى بدرٌ على غُصُنٍ قابلا وَصْلى يقبِّلنى
خلتــه لما أتى حُلُماً وهْو روحى رُدَّ فى بدنى
إن لى عن مثله شُغُلا بمقال الشعر فى الحَسنِ
وأبيه مخلَدٍ فَبــهِ قد لبسنا سابغ المِنَنِ
كاتبٌ قَــلَّ النَّظيرُ له فاضلٌ فى العلم واللَّسَنِ

وشعره يسيل عذوبة ، وكأنما كان يقول أكثره ارتجالا . فلا تكلف فيه ولا تعمُّل ، ومع ذلك لا نجد فيه هلهلة فى النسيج ، إنما نجد المتانة التى تجعله سائغاً فى الآذان والأسماع . وله بعض نظرات وتأملات جيدة من مثل قوله :

كم مريضٍ قد عاش من بعد يأسٍ بعد مــوت الطبيب والعُوَّادِ
قد يُصاد القَطَا فينجو سليماً ويحــلُّ القضاءُ بالصيَّادِ

وهى فكرة دقيقة ، فقد يعيش المريض الميئوس من شفائه المبكىّ عليه من محبيه وأودّائه ، ويموت الطبيب الصحيح المعافى . وبالمثل قد يصاد طائر ، ويخطف الموت صائده ، بينما تُرَدّ له حريته ويعود إلى رفرفته فى الهواء طليقاً .

الحمدونى [1]

اسمه إسماعيل بن إبراهيم الحمدونى ، جدُّه حَمْدَوَيْه صاحب الزنادقة لعهد الرشيد الذى كان يتعقبهم ويأمر بحبسهم أو محاكمتهم ، ونجد أبناءه وأحفاده فى أواخر العصر العباسى الأول وفى هذا العصر يخدمون الخلفاء ويتخذونهم ندماء لهم . وعُرف إبراهيم أبو اسماعيل بأنه كان ينادم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل ، وكان ابنه أحمد على غراره نديمًا للمتوكل ثم للمستعين . ولا نشك فى أن إسماعيل كان على شاكلة أخيه وأبيه ينادم الخلفاء ، وكل شىء فيه كان يُعِدُّه لهذه المنادمة ، إذ كان فكهًا خفيف الروح ، وكان شاعراً ، وصاحب قصص وأخبار ونوادر مضحكة ، واتجه بشعره إلى الهجاء ، ولكن أى هجاء ؟ الهجاء الذى يَلْمَسُ لَمْسَ الإبَر من مثل قوله فى سعيد بن حميد حين ولى رياسة ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ ساخراً منه ومن ملابسه الديوانية الجديدة :

لبس السيفَ سعيدٌ بعد ما ... عاش ذا طِمْرين لا نَوْبَةَ لَهْ
إن لله لآيـــاتٍ وذا ... آيةٌ لله فينا مُنْزَلَـــهْ

فقد جرَّده من كل استحقاق للوظيفة وزيِّها والسيف الذى كان يتقلده مَنْ يشغلها لعصره ، فهو خلو من كل كفاءة ، حتى ليعد تعيينه فيها معجزة لله لا يعلم سرها سواه . وكان سعيد ممن أتقنوا فن الكتابة لعصره وبلغوا فيه شأواً بعيداً . ومن هجائه اللاذع قوله فى بَغيض :

سأَلتك بالله إلا صدقتَ ... وعلمى بأَنك لا تصـــدقُ
أَتُبْغِض نفسَك من بُغضها ... وإلا فأَنت إذنْ أَحْمَقُ

---

(١) انظر فى الحمدونى وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ وفوات الوفيات ١ / ٢٤ والأغانى ١٢ / ٦١ وترجمة أخيه أحمد فى معجم الأدباء ٢ / ٢١٧ وتاريخ الطبرى ٩ / ٢٦٤ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) ٢ / ٢٩٨ و٣ / ٢٤ ، و ٥ / ٣٤٣ و٧ / ٢٨٧ وديوان المعانى ١ / ٢٧٨ وزهر الآداب ٢٣٣ م وما بعدها

فهو خليق بأن يشترك مع مبغضيه فى بغض نفسه . وكأنما أصبح تمثالا للبغض الكريه ، لا عند الناس فحسب ، بل أهم من ذلك عند نفسه . ويا ويل من كان يسلِّط عليه سهام هجائه ، فإنه كان ما يَنِى يُرْسلها عليه . وحدث أن ممدوحه أحمد بن حرب المهلبى الذى طالما د بَّج فيه مدائحه وهب له طَيْلَسَانًا أخضر لم يرضه ، فمضى ينظم فى طيلسانه مقطوعات . وكلما فرغ من مقطوعة نظم مقطوعة جديدة حتى أكملها خمسين مقطوعة طارت على ألسنة الأدباء والناس فى عصره كل مطار منها :

يا بنَ حَرْبٍ كسوتنى طَيْلساناً ... مَلَّ من صحبة الزمان وَصَـدَّا
إن تنفَّسْتُ فيه ينشقُّ شَقًّا ... أو تَنَحْنَحْتُ فيه ينقدُّ قَـدَّا
طال تَرْداده إلى الرَّفْوِ حتى ... لو بعثنـاه وحده لتهدَّى

وألذع الأبيات البيت الأخير . بل كلها لاذعة . فالطيلسان أكل الدهر عليه وشرب ، حتى لكأنما مَلَّ صحبة الدهر ، فقد آن له أن يَبْلَى ويستريح ، وإن أى حركة فيه لتمزّقه إربًا ، وكل يوم ينخرق فيه خرق ويذهب به إلى دكان الرَّفاء ، حتى لو بعث به إليه لعرف الطريق من طول ترداد سيره فيه . وتنوَّع هجاؤه لهذا الطيلسان القديم البالى ، فهو تارة يضمنه بعض ألفاظ قرآنية من مثل قوله :

طيلسانٌ لابن حـربٍ جاءنى ... خلعةً فى يوم نَحْسٍ مستمرّْ
فإذا ما الريحُ هَبَّتْ نحوه ... طيَّرتْه كالجـراد المنتشر

وقوله :

فيما كسانيه ابنُ حربٍ مُعْتَبَرْ ... فانظر إليه فإنه إحدى الكُبَرْ
قد كان أبيض ثم ما زلنا بهِ ... نرفوه حتى اسودَّ من صَدَإِ الإبَرْ

وتتوالى ألفاظ القرآن فى الأبيات كما هو واضح فى ألفاظ : (فى يوم نحس مستمر) و (كالجراد المنتشر) و (إحدى الكبر) ، وكان يعرف كيف يضع اللفظة والآية القرآنية فى مكانها السوىّ . وتارة كان يضمّن هذا الهجاء بعض أبيات شعرية من مثل قوله :

وهبتَ لنا ابن حربٍ طَيْلَساناً ... يزيد المرءَ ذا الضَّعَةِ اتِّضاعا
ولست أشكُّ أنْ قد كان قِدْماً ... لنـــوحٍ فى سفينته شِرَاعا
وقد غَنَّيْتُ إذ أبصرت منه ... جـــوانبه على بدنى تَداعَى
« قِفِى قبل التفرُّق يا ضُباعا ... ولا يك موقفٌ منك الوداعا »

وسخرية مرة أن يزعم أن هذا الطيلسان العتيق كان شراعًا لسفينة نوح فى أعتق الأزمنة ، وصوّر نفسه ملتاعًا إزاء تداعيه على جسده نفس لوعة القطامى التى اشتعلت فى صدره عند فراقه لصاحبته « ضُباعة » . وقطع كثيرة كان يتغنى فى نهايتها بأبيات على شاكلة بيت القطامى تصور أساه ، ودائمًا يعرف كيف يختارها ، مما جعل القدماء يقولون إنه كان يحسن التضمين فى شعره سواء لأبيات الشعر أو للألفاظ والآيات القرآنية . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن سعيد بن أحمد بن خوسنداذ أهداه شاة هزيلة فمضى يكثر من نظم مقطوعات كثيرة فى تلك الشاة مصوراً هُزالها وبؤسها ، صانعًا نفس ما صنعه بهجاء طيلسان ابن حرب من التضمين لأبيات الشعر المشهورة فى الغزل والحب ، من مثل قوله :

مَـــرَّتْ على عَلَفٍ فقامتْ لم تَسِرْ ... عنه وغَنَّتْ والمدامعُ تَسْجُمُ
« وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى ... متـــأَخَّرٌ عنه ولا متقدَّمُ »

والبيت الثانى من قطعة فى الغزل مشهورة لأبى الشيص كان يعجب بها معاصره أبو نواس إعجابًا شديداً . وعلى الرغم مما كانت منادمة الخلفاء توفّره له من أموال كان يدعى الحاجة وأنه مقتّر عليه فى الرزق ، وله يشكو ضيق عيشه ، بينما غيره موسَّع له فى الرزق ينعم بأسباب الترف والنعيم :

مَنْ كان فى الدنيـــا له شارةٌ فنحن من نَظَّارة الدُّنْيَـــا
نَرْمقهـــا من كَثَبٍ حَسْرَةً كأَننـــا لفظٌ بلا مَعْنَى

وله قصيدة رواها ابن عبد ربه فى العقد الفريد نظمها معارضة للامية تأبط شراً المشهورة ، وفيها يتحدث عن حبه وفتوته وعزمه ومضائه وبأسه وشجاعته من مثل قوله :

هو سيفٌ غِمْدُهُ بُرْدَتَاهُ يَنْتضيـــه الحزمُ حين يُسَلُّ
لا يشك السمع حين يراه أنه بالبِيد سِمْعٌ أَزلُّ (١)

وألفاظه فى القصيدة وقوافيه تلتقى مع قوافى تأبط شراً وألفاظه ، وكأنما قصد إلى ذلك قصداً يريد تضمين قصيدته نفس كلماته . وله فى الغزل قطع تصور حبه ولوعته فيه وظمأه إلى رؤية محبوبته وما قد يصلاه من عذاب الهجر ونيرانه ، وله فى وصف طروق طيف الخيال فى المنام قطعة جيدة يقول فى تضاعيفها :

وصلَ الحلمُ بيننا بعد هَجْرٍ فاجتمعنا ونحن مفترقـــانِ
وكأَن الأَرواح خافتْ رَقِيباً فطـــوتْ سِرَّها عن الأَبدانِ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور خصب شاعريته . ومن أكبر الدلالة على ذلك القطع الكثيرة التى أنشدها فى هجاء شاة سعيد وطيلسان ابن حرب ، وكأنه كان يستمد من نبع لا ينضب رصيده .

---

(١) السمع : الذئب . الأزل : المتولد بين ذئب وضبع

ابن بسام [1]

هو على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، من بيت كتابة وأدب ، كان جده نصر يتولى دواوين الخاتم والنفقات والأزمّة فى أيام المعتصم وهو من ممدوحى أبى تمام ، بينما كان أبوه محمد من ممدوحى البحترى . ويقول المسعودى إنه كان مترفاً حسن الزىّ ظاهر المروءة مشغوفًا بالبناء ، ويَرْوى عن بعض معاصريه ما يصوّر بذخه فى بناء داره وفى ثيابه وطعامه وشرابه . وكان قد تزوج أمامة بنت حمدون النديم ، والحديث عن بنى حمدون فى المصادر مضطرب ، ويبدو أنها كانت أخت إسماعيل المترجم له آنفًا ، ومنها أنجب ابنه عليًّا ، وقد عُنى بتربيته أبوه ، حتى أصبح شاعراً ، وحتى أصبح التأليف إحدى هواياته . ويروى له ابن النديم ومترجموه كتبًا مختلفة عن عمر بن أبى ربيعة والأحوص ومناقضات الشعراء ، ويذكرون له ديوان رسائل ، مما يدل على أنه كان كاتبًا كما كان شاعراً . ونراه يتجه منذ نشأته بشعره نحو الهجاء ، وقد يكون لحاله الحمد وفى أثر فى ذلك . وكان شيعيا ، وربما كان لتشيعه أثر فى ذلك أيضًا ، فقد كان الشيعة ناقمين على الدولة والناس انصرافهم عنهم ، بل كانت نقمتهم على الدولة أشد وأدهى ، للزَّجّ بهم فى السجون وتقتيلهم ، وكأنما اتخذ الهجاء سلاحًا له ضد الخلفاء والمجتمع ويبدو أن أباه كان مواليًا للعباسيين ، ولعل هذا هو السر فى كثرة أهاجيه له ، حتى عُدَّ فى العقّة الذين لا يبرّون آباءهم بل يجحدون فضلهم ، وله فى أبيه أهاج كثيرة من مثل قوله فيه وكان يكنى أبا جعفر :

بَنَى أبو جعفرٍ دارًا فشيَّدها ... ومثلُه لخيار الدُّور بَنَّاءُ
فالجوع داخلَها والذلُّ خارجَها ... وفى جوانبهـــا بُؤْسٌ وضَرَّاءُ

وكانت قصراً عظيمًا يدور من حوله بستان وتلمع أمامه بركة ويموج بالغزلان والطيور البهيجة الألوان . ويتمادى فى هجائه له حتى ليقول فيه وفى داره أيضًا :

---

(١) انظر فى ابن بسام وأخباره وأشعاره الفهرست ص ٢٢٠ ومعجم الشعراء ص ١٥٤ وتاريخ بغداد ٢ / ٦٣ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٣٠٦ وما بعدها وزهر الآداب ٣ / ٨٧ وما يليها وذيل زهر الآداب ص ١٨٠ وديوان المعانى ٢ / ٢٣ ، ٢٣٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٩

شِدْتَ دارًا خِلْتَها مكرُمَةً سلَّط الله عليهـا الغَرقا
وأرانيك صريعـاً وَسْطها وأرانيهـا صَعِيدًا زَلَقا[1]

صورة سيئة من العقوق أن يتلقى من أبيه الحياة ، فلا يشعر بأن له عليه دَيْناً إذ منحه الوجود وقام على تربيته ، بل لكأنما جَنَى عليه جناية لا تغتفر ، ولا يمكن أن يزيلها عن نفسه ويمسح أوضارها عن جسده إلا اللعنات يصبُّها على أبيه . ومضى يصبها على الخلفاء والوزراء والكتَّاب وكبار رجال الدولة غير هيَّاب ولا وجل ، بل لكأنما كان يبحث عمن ينتقم منه ويطير به طيرة بطيئًا سقوطها . وكان من أوائل من تعرض لهم بالهجاء الموفق صاحب البلاء العظيم فى حروب الزنج والصفار . ونراه ينظم فيه وفى ولاته ووزرائه وموظفيه قصيدة يستهلُّها بقوله :

أيرجو الموفَّقُ نصرَ الإلٰهِ وأمـرُ العبادِ إلى دَانِيَـهْ

ويأخذ فى هجاء ولاته من مثل الطائى أمير البصرة وإسحق بن عمران أمير الكوفة ووزرائه من مثل إسماعيل بن بلبل ، وصاعد بن مخلد وكان نصرانيًّا وأسلم واستوزره الموفق ، ويصيح :

فخلِّ الزمـانَ لأوغادِهِ إلى لعنة الله والهـاويه

ويُظلُّه عصر المعتضد المعروف بجبروته وأنه كان يلقى الأسد وحده وأنه إذا غضب على قائد أمر أن تُحفَر له حَفيرة ويُلْقَى فيها وتُطَمّ عليه ، ومع ذلك نراه لا يخاف بطشه ولا يخشى بأسه ، إذ نراه يتعرض له بالهجاء ، وتارة يقذع فيه وتارة يخز وخز الإبر من مثل قوله فى احتفاله بختان ابنه المقتدر :

انصرف الناس من ختانٍ يَرْعـون من جُوعهم خُزامى[2]
فقلت لا تعجبوا لهذا فهكـذا تُختَنُ اليتامى

وهو يصفه بالبخل الشديد وأن احتفاله بهذا الختان كان بائسًا ، حتى لكأنما هو ختان بعض اليتامى الذين لا يجدون من يتيح لهم احتفالا عظيمًا بختانهم .

(١) صعيداً زلقا : أرضا ملساء .
(٢) الخزامى : من أزهار البادية

ونراه يكثر من هجاء إسماعيل بن بلبل ، على نحو ما أكثر من هجاء صاعد ابن مخلد ، وفيه يقول :

سجدنا للقرود رجاءَ دُنْيا حَوَتْها دوننا أيدى القرودِ
فما نالت أناملُنا لشيءٍ عملناه سوى ذل السجودِ

وكان نصيب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الموفق وأخيه الخليفة المعتمد من أهاجيه كبيراً ، تارة يصفه بخطل الرأى ، وتارة يهدده بسوء المصير . ونراه ينتهز فرصة وفاة ابنه الحسن فيهجو ابنه القاسم ، مادحاً للحسن حتى يملأ نفس القاسم غيظاً وحنقاً إذ يقول :

قُلْ لأبى القاسم المرجىَّ قابلك الدهرُ بالعجائبْ
مات لك ابنٌ وكان زَيْناً وعاش ذو الشَّيْن والمعايب
حياة هذا كموت هذا فلستَ تخلو من المصائب

ولاكت الألسنة البيت الأخير وسمعه المعتضد فنصح وزيره القاسم أن يوظفه فى عمل وأن يبرَّه ويصله حتى يكفَّ عن هجائه ، فولاَّه بريد الصَّيْمُرَة وما والاها ، وقيل بل ولاه بريد قنَّسْرين والعواصم ، وبقى فى عمله إلى آخر أيام المعتضد ، ويبدو أن العباس بن الحسن وزير المكتفى رأى الاستغناء عنه ، ولعله لذلك أكثر من هجائه ، ومرَّ بنا بعض هذا الهجاء فى حديثنا عن نشاط الشعر ، وفيه يقول :

تحمَّل أوزارَ البريَّةِ كلَّها وزيرٌ بظلم العالمين يُجاهِرُ

واتخذ من شعره سياطاً يلهب بها ظهور ابن الفرات والخاقانى وزيرى المقتدر وله فى الأخير أهاج كثيرة تصور خياناته لأموال الأمة وما كان يدفع إليه الناس من تقديم الرشوة فى كل عمل يحققه لهم ، وسبق أن عرضنا بعض هذا الهجاء فى حديثنا عن فساد الحكم حينئذ . وكانت له مناقضات مع الشعراء يقصد بها إلى الدعابة ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن ابن المعتز أنه نظم فيه مقطوعة دالية داعبه فيها واصفاً ثقله ، ونرى ابن بسام يردّ عليه بقوله على نفس طريقته :

فقدتُك يا قَذاةً فى شرابِ دخلتَ من الدناءة كلَّ بابِ
وأثقل ــ حين تبدو ــ من رقيبٍ وأكذب ــ حين تنطق ــ من سَرابِ
وأغدر للصديق من الليالى وأنكَى للقلوب من العتاب

وكان يناقض جحظة البرمكى كثيراً . وكان على غراره كثير الهجاء ، وكان قبيح الخلقة تقتحمه العيون ، وصوَّر ذلك ابن بسام عابثًا به وبقبحه ، إذ يشكره على إقباله عليه بدابَّته وانصرافه عنه بوجهه الذميم ، يقول :

لِجَحْظَةَ المحسنِ عندى يَدٌ أشكرهــا منه إلى المحشَرِ
لما أرانى وجه بِرْذَونه وصــانَنى عن وجهه المنكر

وعلى هذا النحو لم يسلم من هجاء ابن بسام خليفة ولا وزير ولا أمير ولا صغير ولا كبير ، بل لم يسلم منه أبوه وأهل بيته . وله وراء هذا الهجاء مديح لبعض الوزراء مثل ابن مُقْلة ونعت لبعض الأزهار مثل النرجس ، وله فى الزهد وفناء الحياة أبيات طريفة تجرى على هذا النمط :

أَقْصَرْتُ عن طلب البَطالة والصِّبــا لمــا علانى للمَشِيب قِناعُ
لله أيامُ الشــباب ولهــوِهِ لو أن أيام الشبــاب تُبَاع
فدَعِ الصِّبا يا قلبُ واسْلُ عن الهَوَى ما فيك بعد مشيبك استمتاع
وانظرْ إلى الدنيا بعين مودِّع فلقد دنا سَفَرٌ وحان وداع
والحادثاتُ موكَّلاتٌ بالفَتَى والنــاسُ بعد الحادثات سِماعُ

والأبيات تصوّره قد وخَطَهُ الشيب وأخذ يفكر فى غَدِه ويستعدّ لمصيره ، بعد تلك الرحلة الطويلة التى كان يجاهد فيها مجتمعه بأهاجيه حتى وفاته سنة ٣٠٣ للهجرة . ومن المؤكد أن أهاجيه تصور العصر فى صورة أدق من تلك التى يصورها المديح ، وأن الحياة فيه لم تكن صافية ولا رائقة ، بل كانت كدرة قاتمة ، اختلَّت فيها الموازين والقيم اختلالا شديداً .